الفصل الثاني

أغراضه الشعرية

تمهيد

نظم طرفة في مختلف فنون الشعر المعروفة في العصر الجاهلي، من غزل، ومديح، وهجاء، وفخر، ووصف، وحكمة، ولوم، وعتاب، وحنين.

بيد أن هذه الأغراض تتفاوت لصوقاً بنفسيته، واستحواذاً على فكره وفنه؛ فمنها ما تغلغل في أعماق نفسه، واستبد بلاعج مشاعره، كالغزل، والفخر، والهجاء، والحنين. ومنها ما استأثر بنصيب وافر من عقله وتجاربه وفنه، كالوصف والحكمة.

وفيما يلي عرض لهذه الأغراض كما انطبعت في قريحة طرفة، وانسابت شعراً يعكس ما دار في خلده من أفكار، وما اعتلج في نفسه المنفعلة من أحاسيس ومشاعر، وأبدأ بالغزل.

١

الغزل

سبق القول إن شخصية طرفة التي تفتحت على الحياة الحضرية المترفة في البحرين، بعيداً عن التوجيه والرعاية والزواجر، يلقيها الأب في رُوع ابنه بين الحين والحين، يحيط بهذه الشخصية المتفتّحة رفاق السوء، مستغلين يُتْمَها وشرفَ محتِدها وسخاءَ كفّها، استوت شخصيةً لاهيةً عابثة، عاكفة على اللهو والمجون والشراب والتبذير.

وطبعي أن ينصرف صاحب هذه الشخصية للغزل، ويأنس بمجالسة النساء، والتحدث إليهنّ، ونظم رائع القريض في التشبيب بهنّ، والتغنّي بمحاسنهنّ:

كانت نشأة طرفة إذاً، والظروف المحيطة بتكوين شخصيته، عوامل هامة في تفجّر ينابيع النسيب في نفسه الشاعرة الفتيّة الغضّة، المشرئبّة للغيد الحسان، التوّاقة أن تسكب في سمعهنّ صدى خفق قلبه المتفتّح على الحب، المتطلّع إلى حياته الظليلة الوريفة المنتشية باللذّات.

ومن ثم أقبل طرفة على التشبيب والتغني بحب النساء وجمالهنّ، فشبب بعدد من النسوة، هنّ: خولة، هرّ، ماوي، هند، ابنة مالك، سلمى.

وتشبيب طرفة متركّز في مطالع قصائده، وهو لونان: الأول: الوقوف على الأطلال، وما يتصل به من وداع ورحيل،.

والثاني: التغزل بالمرأة.

أ ـ الوقوف على الأطلال:

لطرفة وقفات على الأطلال، استهل بها قصائده، بعضها تقليدي، كقوله في مستهلّ معلقته[1]:

لِخَولَةَ أطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تَلوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهِرِ اليَدِ
وُقوفاً بها صَحْبي عليَّ مَطِيَّهمْ ... يقولون: لا تَهْلِكْ أسىً وَتَجَلَّدِ

وقوله في القصيدة الثالثة[2]:

أشَجاكَ الرَّبْعُ أمْ قِدَمُهْ ... أمْ رَمادٌ دارسٌ حُمَمُهْ[3]
كسُطورِ الرِّقِّ رَقَّشَهُ ... بالضُّحَى مُرَقِّشٌ يَشِمُهْ[4]

وبعض هذه الوقفات زاخر متدفق بالشعور العرم الحار الصادق، وبخاصةعندما تكون هذه الوقفات مقدمات لموضوعات تعمّقت نفسه، ولامست شغاف قلبه، وأذكت أوار الانفعال في كيانه، كقوله[5]:

قِفي وَدِّعينا اليومَ يا ابنةَ مالِكِ ... وعُوجي علينا من صُدورِ جِمالِكِ
قِفي لا يَكُنْ هذا تَعِلَّةَ وَصْلِنا ... لِبَيْنٍ، ولا ذا حَظُّنا مِنْ نَوالِكِ[6]
أُخَبِّرْكِ أنّ الحيَّ فرّقَ بينهمْ ... نَوًى غَرْبَةٌ ضَرّارةٌ لي كذلِكِ[7]
ولا غَرْوَ إلاّ جارَتي وسُؤالُها ... ألا هَلْ لَنا أهْلٌ؟ سُئِلْتِ كذلِكِ[8]

---

(١) ديوانه بشرح الأعلم: ٥.
(٢) المصدر السابق: ٦٨.
(٣) الربع: محلّ القوم زمن الربيع. والدارس: الذي ذهب أثره. وجمعه: فحمه.
(٤) الرق: الكتاب. رقشه: زيّنه. وقوله «بالضحى»: أي رقّشه في وقت الضحى، وذلك أحكم لصنعة الترقيش. ويشمه: ينقّشه ويزيّنه، ويجعله كالوشم في المعصم.
(٥) الديوان: ٨١.
(٦) يقول: لا يكن إعراضك عنا وترك التعريج علينا عند البين سبباً لقطع وصالنا، ولا يكن حظنا من نوالك القطيعة والهجر.
(٧) نَوًى غَرْبَة: جهة بعيدة.
(٨) ولا غرو: ولا عجب. وسُئِلْتِ كذلكِ: دعا عليها بالغربة، أي صَيَّرَكِ الله غريبة مثلي.

تُعَيِّرُ سَيْري في البـلادِ ورِحْلَتي ... ألا رُبَّ دارٍ لي سِوَى حُرِّ دارِكِ[1]
وليسَ امرُؤٌ أفْنَى الشبابَ مجاوِراً ... سِـوَى حَيِّهِ إلاّ كـآخَرَ هـالِكِ[2]

إنها وقفة وداع موحية منذ البدء بنفسية طرفة المتألمة الحزينة الملوّعة بفراق الأحبة، وكأن ابنة مالك التي طلب إليها أن تقف لتودعه رمز لكل أحبته في دياره، راح يسكب في سمعها ما لهج به قلبه من عواطف الألم والحزن لفراقهم وفراق مغاني شبابه، ومطارح لهوه، ومراتع صباه.

إنها غربة بعيدة ضرّارة للحي كلّه، وله بالذات، وليس أدل على ما كان يعتلج في نفسه من مرارة وأسىً من دعائه على جارته التي ينزل بجوارها أن تُبْتَلَى بما ابتُلِيَ به، إثر سؤالها إياه: أمالك أهل تأوي إليهم؟ وإنه لسؤال فجّر في حناياه تباريح الشوق للأهل، وأثار لواعج الحنين لكل شبر من ديارهم وربوعهم، فدعا عليها أن تذوق ما ذاق من ألم الغربة ولذعة الفراق، وتُسْأَلَ السؤال الذي سألته.

ويكون جواب طرفة على سؤالها إياه وتعييرها له بتشرّده في البلاد ورحلته الدائمة التي لا تنتهي، آهةً حَرَّى يصعّدها من الأعماق:

ألا رُبَّ دارٍ لي سِوى حُرِّ دارِكِ

وكم في عبارة «ألا رُبَّ دارٍ لي» من شِحَن شعورية، تفيض بها نفس المغترب المحزون الملوَّع المشتاق!

ويؤوب بعد ذلك إلى نفسه الكئيبة التي هاضتها الغربة القاتلة، وتجلّت لها قيمة الإنسان في دياره بين أهله وعشيرته، حيث يعرفه الناس، ويحفظون قدره ومقامه، فيصوّر وقع الغربة في حسّها، فلا يجد ما يقوله إلا: إن الذي يقضي شبابه في غربة عن حيِّه كشخص ميت، لما يلقى من الوحدة والوحشة والذل والهوان.

ونراه في هذه القصيدة يكثر من الأداة (ألا)، وهو إكثار له دلالته النفسية، إذ

---

(١) حرّ الدار: وسطها وأكرمها.
(٢) كآخر هالك: أي ميت لما يلقى من الذلّ.

يتكىء على هذه الأداة في بَوْحِه بخبيء القلب، وتصعيده آهات الحزن من أعماق النفس الملذّعة المكلومة.

ومن وقفاته الطللية الموحية بكآبة نفسه، المعبّرة عما يمور فيها من حزن قوله[1]:

لِهِنْدٍ بِحِزّانِ الشُّرَيْفِ طُلُولُ ... تَلوحُ وأَدْنَى عَهْدِهِنَّ مُحِيلُ[2]
وبِالسَّفْحِ آياتٌ كأنَّ رُسُومَها ... يَمانٍ وَشَتْهُ رَيْدَةٌ وسَحولُ[3]
أَرَبَّتْ بِها نَأْجَةٌ تَزْدَهي الحَصَى ... وأَسْحَمُ وَكّافُ العشِيِّ هَطُولُ[4]
فَغَيَّرْنَ آياتِ الدِّيارِ معَ البِلَى ... وليسَ على رَيْبِ الزّمانِ كَفيلُ
بما قَدْ أرى الحَيَّ الجميعَ بِغِبْطَةٍ ... إذا الحَيُّ حَيٌّ والحُلولُ حُلولُ[5]

إنها أطلال هند، أتى على أدنى ما عهد فيها حول كامل، فإذا هي رسوم دارسة، لعبت بها الرياح الهوج، وانسكب فوق ربوعها المزن الهتون، فتغير فيها كل شيء، وهنا تندّ من الشاعر عبارات تحمل آهة الأسى واللوعة على الديار وأهلها، في شكل تعقيب حكيم رزين:

فَغَيَّرْنَ آياتِ الدِّيارِ معَ البِلَى ... وليسَ على رَيْبِ الزّمانِ كَفيلُ

وبعد أن كان الجميع بغبطة، إذ الحي حي، بكل ما في الحياة والسعادة والبشر من معانٍ، والحلول حلول مقيمون سعداء غانمون، تبدّل كل شيء...

---

(١) ديوانه بشرح الأعلم: ٧٦.

(٢) الحِزّان: جمع حزيز، وهو الغليظ من الأرض. والشُّرَيْف: واد بنجد.

(٣) آيات: علامات. والرسوم: الآثار. ويمان: أي ثوب يمان. ووشته: زيّنته وحسّنته. وريدة وسَحول: قريتان من قرى اليمن. ومعناه: وشّاه أهل ريدة وسحول.

(٤) أربّت بها: لزمتها وأقامت بها. ونَأْجة: أي ريح نأجة، وهي الريح الشديدة السريعة. وتزدهي الحصى: تستخفّه وترمي به. والأسحم: السحاب الأسود. ووكّاف: كثير القطر.

(٥) بما قد أرى..: أي هذا التغيّر والبلاء بما كان الناس فيه من الغبطة والسرور، أي تبدل هذا بذاك.

ولنا أن نتصور وقع هذه المفارقة الكبرى في نفس الشاعر التي تصورت الدار عامرة تضجّ بصخب الأحباب، فإذا هي خالية متغيّرة يباب.

ب ـ التغزّل بالمرأة:

لقد وقف طرفة عند جمال المرأة الكلّيّ، فوصف محاسنها جملة واحدة، إذ شبهها بالظبي الأحوى الشادن الفتيّ الذي تحرك واستغنى عن أمه، فهو في ميعة الصِّبا وريعان الشباب، يحلّي جيده سِمطان من لؤلؤ وزبرجد[1]:

وفي الحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ المَرْدَ شادِنٌ مُظاهِرُ سِمْطَيْ لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَدِ[2]

وشبهها ببقرة وحشية خذول، تأخرت عن صواحبها، فهي ولهة فزعة على خشفها، تمدّ عنقها مراقبة صواحبها لئلا تبتعد عنها، وتحنو على خشفها وترعاه[3]:

خَذولٌ تُراعي رَبْرَباً بِخَميلَةٍ تَناوَلُ أَطْرافَ البَريرِ وتَرْتَدي[4]

وشبهها في قصيدة أخرى بالرئم صِيدَ غزالُها، تسارقة النظرات بطرفها الساجي الفاتر[5]:

وإذْهِيَ مِثْلُ الرِّئْمِ صِيدَ غَزالُها لَها نَظَرٌ ساجٍ إلَيْكَ تُواغِلُهْ[6]

ووقف طرفة عند جمال المرأة الجزئي، فوصف ثغرها العذب النّضيد[7]:

---

(١) معلقته: ٦.

(٢) الأحوى: الظبي الذي له خطّتان من سواد وبياض. والمرد: ثمر الأراك المدرك. والشادن: الذي تحرك وقوي وكاد يستغني عن أمه. والمظاهر: اللابس واحداً فوق آخر.

(٣) معلقته: ٧.

(٤) الخذول: التي خذلت صواجها، أي تأخرت عنها. تراعي ربرباً: تراقبه وتنظر إليه. والربرب: القطيع من بقر الوحش. والبرير: ثمر الأراك الذي لم يدرك. وترتدي: أي تتهدّل عليها الأغصان فكأنها لها رداء.

(٥) ديوانه بشرح الأعلم: ١١٥.

(٦) الرئم: الظبية البيضاء: وتواغله: أي تسارقه النظر.

(٧) معلقته: ٨.

وتَبْسِمُ عن أَلْمَى كـأنَّ مُـنَـوَّراً تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لهُ نَدِ[1]

ووصف ريقها العذب البَرود، وأنفاسها الزكية المعطرة، كأن ريقها رضاب المسك ممزوجاً بالماء البارد الصافي[2]:

وإذا تَـضْحَـكُ تُـبْـدي حَـبَـبـاً كَرُضابِ المِسْكِ بالماء الخَصِرْ[3]
صـادَفَتْـهُ حَـرْجَفٌ فـي تَلْعَـةٍ فسَجـا وَسْطَ بَـلاطٍ مُسْبَـطِرْ[4]

ووقف عند نظراتها الساحرة، إذ تخلس الطرف إليه في رشاقة وفتنة، بعينين سوداوين واسعتين، كأنهما عَيْنا ولد الناقة الفتيّ، وبخدّين أسيلين، كأنهما خدا غزال صغير آدم اللون، علت ظهره سمرة محبّبة، وكسا بطنه بياض جميل[5].

تَخْلِسُ الـطَّرْفَ بِعَيْنَيْ بُـرْغُـزٍ وبِـخَـدَّيْ رَشَـإٍ آدَمَ غِـرْ[6]

وتمضي مع طرفة يصف حسناءه المفضّلة، فإذا هي هضيمة الكشح، كأنه كشح مهاة مطفل منعّمة مرفّهة، تعيش في خصب وسعة، تنتقل من فنن إلى فنن، وترعى الزهور النضرة والأوراق الغضّة، وتجترىء بما ترعاه من رطب الكلأ، وغضّ الزهور، وطريّ الأغصان، عن شرب الماء، فتحافظ بذلك على رشاقتها، ودقة خصرها، وضمور بطنها[7]:

---

(١) ألمى: أي ثغر ألمى، أسمر اللثاث. والمنوّر: الأقحوان ظهر نوره. وحر الرمل: أكرمه وأحسنه لوناً. والدعص: كثيب من الرمل.

(٢) ديوانه بشرح الأعلم: ٥١.

(٣) الحبب: طرائق من ريقها، يريد أن فمها كثير الريق، وإذا قلّ ريق الفم تغيرت رائحته. الخصر: البارد. شبه ماء فمها في طيب رائحته برضاب المسك، أي قطعه، ممزوجة بالماء البارد.

(٤) الحرجف: الريح الشديدة. والتلعة: مسيل الماء إلى الوادي. وسجا: سكن. والبلاط: أرض مستوية في صفاة. والمسبطر: السهل الممتد.

(٥) ديوانه: ٤٧.

(٦) البرغز: ولد الناقة. والرشأ: الغزال. والغر: الغافل لحداثة سنه.

(٧) ديوانه بشرح الأعلم: ٤٧.

ولَهـا كَشْحـا مَهـاةٍ مُـطْفِـلٍ تَقْتَـري بالـرَّمْلِ أَفْنـانَ الزَّهَـرْ[1]

ويحلو لطرفة أن يسترسل في رسم صورة المهاة التي شبه بها حسناءه، فإذا هي مهاة صغيرة ذات شعر منسدل ملتف غزير طويل، ملساء القرن، وحولها ولدها، تنفض بقرنيها أفنان الشجر، فيتساقط ثمرها حوله، وإنها في حنوها على صغيرها الذي لم يشتد ظلفه بعد، لتزداد جمالاً على جمال[2]:

وعـلى الـمَـتْـنَـيْـنِ مِـنْـهـا وارِدٌ حَسَنُ النَّبْـتِ أثيـثٌ مُسْـبَكِـرْ[3]
جَـأْبَـةُ المِـدْرَى لَهـا ذُو جُـدَّةٍ تَنْفُضُ الضَّـالَ وأفْـنـانَ السَّمُـرْ[4]
بينَ أكْـنـافِ خُفـافٍ فَـالـلِّوَى مُخْرِفٌ تَحْنو لِرَخْصِ الظِّلْفِ حُرْ[5]

وهي لدنة الجسم، ناعمة بضّة، رجراجة الأعضاء[6]:

وإذا قـامَـتْ تَـداعَى قـاصِـفٌ مـالَ مِنْ أعلى كَثيبٍ مُنْقَعِـرْ[7]

وهي دافئة تطرد البرد، باردة تلطّف من لذعة الحر[8]:

---

(١) الكشح: الخصر وما انضمت عليه الأضلاع. والمهاة: البقرة الوحشية. والمطفل: ذات الولد الصغير. تقتري: تتّبع. والأفنان: الأغصان.

(٢) ديوانه: ٤٨.

(٣) المتنان: ما اكتنف الصلب من اللحم. والوارد: الشعر المنسدل الساقط على المتنين. والأثيث: الملتف الكثير الأصول. والمسبكر: الممتد الطويل.

(٤) جأبة المدرى: غليظة القرن ملساؤه، لم يرتفع بعد لصغرها. وذو جدّة: ولد ذو جدّة في ظهره، وهي الطريقة التي في متنه. والضال: السدر البرّيّ. والسمر: شجر.

(٥) الأكناف: النواحي. وخفاف واللوى: موضعان. والمخرف: التي نُتِجَت في الخريف. والحر: الكريم.

(٦) ديوانه: ٥٢.

(٧) القاصف: ما انقصف من الرمل، أي مال وانهال. والكثيب: رمل مجتمع. والمنقعر: المنقلع من أصوله.

(٨) ديوانه: ٥٢.

تَـطْرُدُ الـقُـرَّ بِـحَـرٍّ صـادِقٍ   وعَكِيـكَ القَيْظِ إنْ جاءَ بِقُـرّْ[1]

إنها من النسوة المنعّمات المترفات، نؤومات الصيف، قليلات الأولاد، لا تفسد جمالَهنّ رضاعة، ولا تطفىء بريقَ نعمتهنّ همومُ العيش[2]:

لا تَلُمْني إنَّهـا مِنْ نِسْـوَةٍ   رُقَّـدِ الصَّيْفِ مَقـالِيتَ نُـزُرْ[3]

لقد كان يصبي فتى اللذات أن يتغنّـى بجمال الحسناء التي لم يؤدها حمل، فتنتفخ بطنها ويتسع حوضها، ويصبيه منها أن تكون دوماً ضامرة الخصر، هضيمة الكشحين[4]

لَهـا كَبِـدٌ مَلْسـاءُ ذاتُ أَسِـرَّةٍ   وكَشْحانِ لَمْ يَنْقُصْ طَواءَهُما الحَبَلْ[5]

وكان يسبيه منها ما هي عليه من نعمة ورقة ورفاهية ولين أعطاف، حتى إنه ليحسب رفعها طرفها للنظر شدّة عليها تؤودها وتؤذيها. وهنا يتملك طرفة شعور طاغ بالإعجاب بفتنتها وشبابها الممتلىء الريّان، فيصرخ من أعماقه مستغيثاً مستنجداً[6]:

تَحْسِبُ الـطَّرفَ علَيْهـا نَجْـدَةً   يـا لَقَـوْمي لِلشّبـابِ المُسْبَكِـرّْ[7]

والذي يبدو لي من تأمل شعر طرفة في الغزل أنه ربما كان في معظم غزله تقليدياً، لا نحس فيه نبضات قلب المحب العاشق، ولكنه في قصيدته الثانية[8]:

---

(١) القرّ: البرد. والعكيك: الشديد الحرّ.

(٢) ديوانه: ٥٢.

(٣) رقّد الصيف: أي هنّ مكفيّات لا يعملن. والمقاليت: جمع مقلات، وهي التي لا يعيش لها ولد. والنزر: القليلات الأولاد.

(٤) ديوانه: ٨٦.

(٥) الكبد: أراد بها هنا بطنها ووسطها. والأسرّة: العكن والطرائق. والكشحان: ما انضمت عليه الأضلاع من الجنبين. والطّواء: الضمور، وقد مُدّ هنا، والمعروف فيه القصر.

(٦) ديوانه: ٤٩.

(٧) النجدة: الشدّة. والمسبكر: التام المنتصب.

(٨) ديوانه: ٤٥.

أَصَحَوْتَ اليومَ أمْ شاقَتْكَ هِرْ ومنَ الحُبِّ جُنونٌ مُسْتَعِرْ[1]

قد يكون محباً، اكتوى بنار العشق، ولذّع قلبه الغرام، أو يكون حَانّاً لفتاة اتصلت بينهما الأسباب.

ذلك أنه لم يقتصر في تغزّله بها على الحديث العام عن جمالها الكلي أو الجزئي، وإنما تعدّى ذلك إلى ذكر صلته بها أينما حلّت، في الصيف وفي الشتاء. ويظهر أن الشاعر كان يدنو من منازلها، حيثما ألقوا عصا الترحال، وكان له منها جنى من القبل ألذ من الراح الصافي، خالطه الماء البرود[2]:

حَيْثُما قاظُوا بنَجْدٍ وشَتَوْا حولَ ذاتِ الحاذِ مِنْ ثِنَيْ وُقُرْ[3]

فَلَهُ مِنْها على أَحْيانِها صِفْوَةُ الرّاحِ بِمَلْذُوذٍ خَصِرْ[4]

ويبدو أنها كانت تصدّ عنه أحياناً، وتنأى عنه، حتى إنها لتريه نجوم الظهر، وإذا المحب الملوّع المسكين، يتقلب من بلابل حبها وذكرى أيام وصلها في الأهوال والغموم والأحزان، وإذا هو يصيح: يا لَشَحْطَ مَزارِه، ويا لَسوء حالِه[5]:

إنْ تُنَوِّلْهُ فقَدْ تَمْنَعُهُ وتُريهِ النَّجْمَ يَجْري بالظُّهُرْ

ظَلَّ في عَسْكَرةٍ مِنْ حُبِّها ونَأَتْ شَحْطَ مَزارِ المُذَّكِرْ[6]

وإنه، على صدّها وإعراضها وبعد منتآها، لمحب مقيم على العهد، عاكف على حبها، مهما شطت بها النوى، وبعُد المزار[7]:

فَلَئِنْ شَطَّتْ نَواها مَرّةً لَعلَى عَهْدِ حَبيبٍ مُعْتَكِرْ[8]

---

(١) هر: اسم محبوبته.

(٢) ديوانه: ٥٠.

(٣) ذات الحاذ: أرض تنبت الحاذ، وهو شجر صحراوي. ووُقُر: موضع. وثنياه: جانباه.

(٤) الملذوذ: اللذيذ المستلذّ. والخصر: البارد.

(٥) ديوانه: ٥٠.

(٦) العسكرة: الشدّة والغمّ. شحط مزار المذّكر: أراد يا شحط مزاره، والشحط: البعد.

(٧) ديوانه: ٥١.

(٨) معتكر: دائم ثابت.

بل إن حبها تغلغل في شغاف قلبه، فلا فكاك منه، ولا إقلاع له عنه[1]:

كَيْفَ أَرْجـو حُبَّهـا مِنْ بَعْـدِمـا ... عَلِقَ القَلْبُ بِنَصْبٍ مُسْتَسِـرْ[2]

وهي إن غابت عن ناظريه، فطيفها لا ينقطع عن زيارته، يقطع البيد إليه آخر الليل، وصحبه هجّع، فتمثل فيه الحبيبة رشيقة فاتنة، كالظبية المتورّدة الحسناء الفاترة الحركات، فتثير أشجانه، وتؤرق جفنه، وتحرمه لذيذ المنام[3]:

أَرَّقَ الـعَيْـنَ خَيـالٌ لـمْ يَـقِـرْ ... طـافَ والرَّكْبُ بِصَحْـراءُ يُسُرْ[4]
جـازَتِ الـبِـيـدَ إلـى أَرْحُلِنـا ... آخِـرُ اللَّيْـلِ بِيَعْفُـورٍ خَـدِرْ[5]
ثُـمَّ زارَتْني، وصَحْبي هُـجَّـعٌ ... في خَليطٍ بـينَ بُـرْدٍ ونَـمِـرْ[6]

وتتداعى إلى ذاكرة الشاعر صورة ترحل الحبيبة عن الديار وسط نسوة منعّمات، يبدون للناظر من شدة بياضهنّ ولين أجسامهن كالسحائب البيض الرقاق، يَتَثَنَّيْنَ في مشيتهن تثني نبات الصيف الأخضر اللّدن الغضّ، ويرتفع من بين النسوة الفاتنات صوت حبيبته الرخيم، ويترامى إلى سمعه، فيقطّع نياط قلبه خوف النوى، ويرفع عينيه فيرى حبيبته الملثمة، صاحبة الصوت الرخيم، قد تحملت للرحيل، وقد فاح من هودجها العبير[7]:

كَبَنـاتِ المَخْـرِ يَـمْـأَدْنَ كَمـا ... أَنْبَتَ الصَّيْفُ عَساليجَ الخَضِرْ[8]
فَجَعُـوني يـومَ زَمُّـوا عِيـرَهُمْ ... بِـرَخيمِ الصَّـوْتِ مَلْثُـومٍ عَـطِرْ

---

(١) ديوانه: ٤٦.

(٢) أرجو حبها: أي أرجو إقلاع حبها عني. والنصب: العذاب. والمستسر: المكتتم الداخل في القلب.

(٣) ديوانه: ٤٦.

(٤) لم يقر: لم يدع فيستقر ويسكن. ويسر: موضع.

(٥) اليعفور: ظبي تعلوه حمرة. والخدر: الفاتر العظام البطيء عند القيام.

(٦) برد ونمر: قبيلتان من إياد.

(٧) ديوانه: ٥٣.

(٨) المخر: سحائب يأتين قبل الصيف منتصبات رقاق. والعساليج: جمع عسلوج، وهو نبت أبيض يخرج في الصيف، لين ينثني، فشبه تثنّيهنّ به. والخضر: نبت أخضر.

ويبدو أنه قد سنحت في حياة طرفة سوانح من السعادة، ابتسمت له فيها الأيام، ومنحته نوعاً من الحياة الغضّة الطليقة الرافهة، الحافلة بالنعيم، امتدت حقبة من الزمان، كان فيها الحبيبان في لقاء دائم، آمنين، لا يخشيان التفرق، كلاهما غرير لاهمّ يؤوده فينغّص عليه صفاء النعيم الذيّ يتقلّبان في أعطافه، وهما في عنفوان الصبا وريعان الشباب، يمرحان في عالمه السمح الضاحك المستبشر الطروب[1]:

غَنِينَا وما نَخْشَى التَّفَرُّقَ حِقْبَةً ... كِلانا غَريرٌ ناعِمُ العَيْشِ باجِلُهْ[2]
لَيَالِيَ أَقْتَادُ الصِّبا ويَقُودُني ... يَجولُ بِنا رَيْعانُهُ ونُجَاوِلُهْ[3]

إنهما بيتان يدلاّن على تجربة غنية طافحة بالمتعة والسعادة، عاشها الشاعر، وصدق في نقلها إلينا.

ولكن هذا الحلم الجميل الزاهي، لم يكد صاحبه يتملاّه ويستمتع به، حتى تقوّض بناؤه السامق، وصُوِّحَ ظلُّه وزهره، وغاضتْ ماؤه وجف ثمره. ومن هنا كان الشاعر يرى أن الموت أهون على الفتى من حب شغف قلبه وأقام فيه لا يريم[4]:

لَعَمْري لَمَوْتٌ لا عُقوبَةَ بعدَهُ ... لِذي البَثِّ أَشْفى مِنْ هوًى لا يُزايِلُهْ[5]
فَوَجْدي بِسَلْمَى مِثْلُ وَجْدِ مُرَقِّشٍ ... بِأَسْماءَ إذْ لا تَسْتَفيقُ عَواذِلُهْ[6]

وبعد، فهل استطاع هذا الحب الجارف الذي رأينا صوراً منه في شعر طرفة أن يعصف بقلب الفتى العزيز، ويغمز من قناة صلفه واستعلائه وكبريائه، ويجعله راكعاً صاغراً متذللاً أمام المحبوبة، شأن المحبّين المتيمين؟

---

(١) ديوانه: ١١٦.
(٢) الباجل: الناعم الحسن.
(٣) ريعانه: أوله.
(٤) ديوانه: ١٢٠.
(٥) البث. الحزن، وحقيقته ما بثّه الإنسان من وجده إذا لم يستطع أن يكتمه.
(٦) لا تستفيق عواذله: أي لا يتركن من عذلهنّ له مقدار فيقة، والفيقة ما بين الحلبتين.

لقد هزت رياح الحب أوتار قلب طرفة، فوقّع تلك الألحان الرائعة الجميلة، ولكن تلك الرياح لم تعصف بقلبه كله، بل ظلّ معتصمًا بعزته وكبريائه وأنفة الشباب فيه، فبينا كنا نراه هائمًا مشغوفاً بالحبيبة، مفجوعاً بزمّ الجمال للرحيل، إذا نحن نراه قد أدركته سورة الشباب ونزقه، وسكرة الفتوة واعتدادها، فإذا هو يقول[1]:

وإذا تَـلْسُـنُـنـي أَلْـسُـنُـهـا إنّني لَسْتُ بِمَـوْهـونٍ فَقِـرْ[2]

ويثور بخيال الحنظلية الذي شغل باله وأرّق جفنه، فيصيح[3]:

فَقُـلْ لِخَيـالِ الحَنْـظَلِيَّـةِ يَنْقَلِبْ إلَيْها فَإنّي واصِلٌ حَبْلَ مَنْ وَصَلْ[4]

ومن هنا عاب النقاد على طرفة هذا الاستعلاء على المحبوبة، إذ عهدهم بالمحب التذلّـل بين يديها والضراعة والملاطفة والملاينة والاسترحام.

وغزل طرفة وثيق الصلة بحياته، بل هو تعبير صادق عن الفترة الهنيئة القصيرة التي اختلسها شاعرنا من حياته. ومن ثم كانت صوره الغزلية غنية مترفة، توحي بالرفاهية وغضارة العيش وغناه، وتتألق فيها الأضواء والألوان.

فالظبي الذي شبه به المحبوبة لابس سمطي لؤلؤ وزبرجد، والحبيبة تفتر عن ثغر برّاق الثنايا، كأن بياضها نَوْر الأقحوان، وأي أقحوان؟ إنه الأقحوان النضر العاجي المتألق، الذي نبت في كثيب من حر الرمل وأكرمه وأحسنه لوناً وأكثره ندى، وقد انسكب ضوء الشمس على الثنايا البراقة البيضاء، وذُرّ الإثمد على اللثاث، ليبرز الثغر أشد ما يكون بياضاً وصفاء، ولم تكدم عليه بعظم فيؤثر في جماله[5]:

وفي الحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ المَرْدَ شادِنٌ مُظاهِرُ سِمْـطَيْ لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَـدِ[6]

---

(١) ديوانه: ٥٤.

(٢) يقول: إذا أخذتني بلسانها وفخرت عليّ انتصرت بلساني، وقابلتها بمثل ذلك، لأني عزيز قوي النفس لا أحتمل الضيم. والموهون: الضعيف. والفقر: الضعيف الفقار وهو كناية عن ضعف النفس.

(٣) ديوانه: ٨٨.

(٤) الحنظلية: امرأة من بني حنظلة بن مالك.

(٥) معلقته: ٦، ٨، ٩.

(٦) مضى البيت وشرحه ص ٩٠.

وتبسِمُ عَنْ أَلْمَى كـأنَّ مُنـوِّراً   تَخلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لهُ نَدِ[1]
سَقَتْـهُ إِيـاةُ الشَّمْسِ إلاّ لِثـاتِـهِ   أُسِفَّ ولمْ تَكْـدِمْ عَلَيْهِ بِـإِثْمِدِ[2]

والخذول التي شبهها بها أيضاً طليقة وسط خميلة، تهدلت فيها الأغصان، حتى كأن لها منها رداء، وراحت هي تضع يديها على ساق الشجرة، وتمدّ عنقها فتتناول ما فاتها من الأغصان، وهذا كلّه دليل خصب ونعمة ورفاهية، لحظه الشاعر في المحبوبة حين عقد التشبيه[3]:

خَـذولٌ تُـراعي رَبْـرَبـاً بِخَميلَةٍ   تَناوَلُ أَطْرافَ البَـريرِ وتَـرْتَدي[4]

والصور في غزل طرفة دقيقة كل الدقة، محكمة أشد الإحكام، فهو إذا ما شبه المرأة بالمهاة أو الظبية خصّ دوماً المطفل ذات الولدالصغير، التي تخذل القطيع، وتعطف على ولدها، لأن ذلك أبين لحسنها وأتم؛ إذ تشرئب ببصرها مراقبة القطيع كيلا يبتعد عنها، وتمد عنقها مراقبة وليدها حانية عليه كما رأينا في البيت السابق، وكما في هذا البيت[5]:

بينَ أكْنـافِ خُفـافٍ فـالِّلوى   مُخْرِفٌ تَحْنو لِرَخْصِ الظِّلْفِ حُرّْ[6]

والمهاة المشبه بها لطيفة، رقيقة، هضيمة الكشح، مرفّهة، وفي ذلك التشبيه ما فيه من دقة وتأنق وإتقان وجودة، عني به شاعر شاب متطلّع إلى اللذات، مشوق إلى مجالسة النساء، بصير بمواطن الجمال في أجسامهنّ.

ولما وقف عند رضابها العذب البارد، وأنفاسها الزكية المعطّرة، عقد لذلك تشبيهاً، التفت فيه للمشبه به، وأطال فيه القول، ليؤكد الصّفة التي يريد إثباتها للمشبه به[7]:

---

(١) تقدم البيت وشرحه ص٩١.
(٢) إياة الشمس: ضوؤها وشعاعها. وأُسِفّ: ذُرّ. وتكدم: تعضّ. والإثمد: الكحل.
(٣) معلقته: ٧.
(٤) تقدم البيت وشرحه ص ٩
(٥) ديوانه: ٤٩.
(٦) تقدم البيت وشرحه ص ٩٢.
(٧) ديوانه: ٥١.

وإذا تَضْحَكُ تُبْدي حَبَباً كَرُضابِ المِسْكِ بالماءِ الخَصِرْ[1]
صادَفَتْهُ حَرْجَفٌ في تَلْعَةٍ فَسَجا وَسْطَ بَلاطٍ مُسْبَطِرْ

فهو يريد أن يثبت لها عذوبة الريق وبرده وطيب رائحته، فشبه ريقها برضاب المسك ممزوجاً بالماء البارد الصافي الساجي في أرض مستوية، تداعبه الرياح، فتزيده برودة، وهذا ما يسميه البلاغيون بالإيغال في التشبيه.

وصور طرفة في غزله بدوية صرفة، وبعضها مزيج من معطيات البيئة الحضرية في البحرين، ومعطيات البيئة البدوية في بوادي نجد.

فمن صوره البدوية البحتة قوله في وصف المطر ينهمر على ديار خولة[2]:

كأَنَّ الخَلايا فيهِ ضَلَّتْ رِباعُها وعُوذاً إذا ما هَزَّهُ رَعْدُهُ احْتَفَلْ[3]

فقد شبه السحاب لكثرة رعده بالإبل العوذ، حديثة النتاج، ضلت عنها رباعها، فهي تحنّ إليها. وخص في تشبيهه العوذ، لأنها أَوْلَهُ على أولادها لحدثان نتاجها، فحنينها أشد، وصوتها أقوى وأوضح.

ومن هذه الصور البدوية الجميلة الشاخصة قوله يصف ليونة جسم المرأة الرجراج[4]:

وإذا قامَتْ تَداعَى قاصِفٌ مالَ مِنْ أَعْلَى كَثِيبٍ مُنْقَعِرْ[5]

أما صوره التي مزج فيها بين معطيات البيئة الحضرية في البحرين، ومعطيات البيئة البدوية في بوادي نجد، فنجدها في مثل قوله واصفاً مراكب النساء[6]:

---

(١) تقدم البيت والذي يليه ص ٩١.
(٢) ديوانه: ٨٦.
(٣) الخلايا: جمع خلية، وهي النوق. والرباع: جمع رُبَع، وهو ما نتج في الربيع. والعوذ: الحديثات النتاج، واحدتها عائذة.
(٤) ديوانه: ٥٢.
(٥) تقدم البيت وشرحه ص ٩٢.
(٦) معلقته: ٣، ٥.

كـأنّ حُـدوجَ المـالِكيَّـةِ غُـدْوَةً خَلايا سَفينٍ بالنَّواصِفِ مِنْ دَدِ[1]
يَشُقُّ حَبابَ الماء حَيْـزومُها بِهـا كمَا قَسَمَ التُّرْبَ المُفائِلُ بِاليَدِ[2]

فقد شبه حدوج المالكية تشق طريقها في الأودية بالسفن العظام، تشقّ مياه البحر، كما يشق الصبيان الترب بأيديهم، وهم يلعبون لعبة الفِئال. فالتشبيه الحضري بالسفن إلى جانب التشبيه البدوي بالفئال جنباً إلى جنب.

وحينما شبه خولة بالظبي، كان ظبياً لابساً سمطي لؤلؤ وزبرجد.

وأسلوب طرفة في غزله يرقّ ويشفّ ويلطف بألفاظه العذبة الأليفة المؤنسة، وبتراكيبه البديعة المحكمة[3]:

دِيـارٌ لِسَلْمَى إذْ تَصِيـدُكَ بـالمُنى وإذْ حَبْلُ سَلْمَى منكَ دانٍ تُواصلُهْ[4]
وإذْ هِيَ مِثْلُ الرِّئْمِ صِيدَ غَزالُهـا لَهـا نَظَرٌ سـاجٍ إلَيْكَ تُـواغِلُهْ[5]
غَنِينـا. وما نَخْشَى التَّفـرّقَ حِقْبَـةً كِلانا غَرِيرٌ ناعِمُ العَيْشِ باجِلُهْ[6]
لَيـالِيَ أَقْتـادُ الصِّبـا ويَقـودُني يَجُـولُ بِنا رَيْعـانُـهُ ونُجـاوِلُـهْ[7]

فالألفاظ عذبة الوقع، حلوة الرنين، واضحة مأنوسة، والتراكيب رصينة النسج، محكمة الرصف، بديعة التأليف، يسري فيها الماء والرونق، وتموج ظلال الحب والأمن والدعة والجمال.

---

(١) الحدوج: جمع حدج، وهو مركب من مراكب النساء. والمالكية: من بني مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. والخلايا: جمع خلية، وهي السفينة العظيمة. والنواصف: مواضع تتسع من الأودية. ودد: موضع.

(٢) حباب الماء: أمواجه. وحيزومها: صدرها. والمفائل: الذي يلعب الفئال، وهي لعبة الصبيان العرب، يجمعون تراباً أو رملاً، ثم يخبئون فيه خبأ ثم يشق المفائل التراب بيده فيقسمه قسمين ثم يسأل عن خبئه.

(٣) ديوانه: ١١٥، ١١٦.

(٤) تصيدك بالمنى: تمنّيك وتصيدك بمناها.

(٥) تقدم البيت وشرحه ص ٩٦.

(٦)،(٧) تقدم البيتان وشرحهما ص.

٢

الوصف

انبث الوصف في قصائد طرفة، وكان عدته الفنية في أغراضه الشعرية كافة، فهو في غزله وفخره وهجائه وسائر موضوعاته وصّاف متأنٍّ مجوّد متقن، كأنه ينظر إلى دقائق الوصف بعين من البلّور، كما يقول الرافعي[1]، تمدّه موهبة فطرية لاقطة لعناصر الوصف، وحاسة دقيقة في اصطفاء الصالح من تلك العناصر والتأليف بينها، بحيث يستقيم له وصف ما يريد على أدق وجه ارتضاه، وأكمل صورة تخيّلها.

ومن هنا كان على الباحث الذي يودّ الإحاطة بفن طرفة الوصفي أن يلم بصنيعه الفني في كل غرض من أغراضه الشعرية، ويستجلي الصور والمشاهد واللوحات التي رسمتها ريشته الدقيقة، في ثنايا تلك الأغراض.

أما دائرة الوصف الكبرى التي ارتسمت غرضاً واضحاً بين أغراضه الشعرية، فكان محتواها: وصف الناقة، ووصف الخيل.

أ ـ وصف الناقة:

كانت الناقة شيئاً أساسياً هاماً في حياة طرفة، فهي راحلته في الأسفار، وهي رفيقه في الوحدة، وأنيسه في الغربة، وهي وسيلته للضرب في الأرض، على متنها قطع المفاوز والفلوات، وشرّق في الأرض وغرّب، وبها تقحّم المهالك، وسار في الهواجر اللافحات.

---

(١) تاريخ آداب العرب ٣/ ٢٢٥.

فلا غرو أن يقبل طرفة على وصف الناقة، فيقف عند كل عضو من أعضائها، كما يقف الرسام الفنان، يرسم لوحة كاملة لناقة قوية نشيطة من أنجب النوق وأجملها. ولا بدع أن يتغنى بإرقالها الدائب، ووَخْدها السريع، وتبخترها المعجب، ولونها الجميل، وغير ذلك من أوصافها وحركاتها وطباعها، وأن يأتي في هذا الوصف بالشيء الوافي البديع المعجب الفذّ الذي لم يبلغ شأوه شاعر.

وقد جاء معظم وصفه للناقة في معلقته، إذ استغرق ثمانية وعشرين بيتاً منها: وبعضه في القصيدة الثانية من ديوانه برواية الأصمعي، ولم يشغل منها سوى ثلاثة أبيات.

بدأ وصفه للناقة في معلقته، بعد مقدمة في النسيب استغرقت عشرة أبيات، انتقل بعدها ببراعة إلى وصف الناقة، إذ أخبر أن من عادته إذا حلّت بساحته الهموم أن يرتحل على ناقة عوجاء ذات أسفار، تصل رواحها بغدوّها[1]:

وإنّي لَأُمْضي الهَمَّ عندَ احْتِضارِهِ بِعَوْجاءَ مِرْقالٍ تَروحُ وتَغْتَدي[2]

ومن هنا انطلق في وصفها وصفاً مفصّلاً؛ فهي موثّقة الخَلْق، واسعة الجنبين، كأنها، في سعة جنبيها وشدّة خلقها، ألواح التابوت[3]:

أَمُونٍ كـأَلْـواحِ الإرانِ نَسَـأْتُهـا على لاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُـدِ[4]

وهي شبعى، منعّمة مرفّهة، رعت أطيب نبت الربيع، في حدائق جادها المزن الهتون، فتثنّى نبتُها رياً وغضارة، وراحت تباري كرام النوق العتاق السراع، في مناقلتها، وإتباعِ وظيفِ رجلها وظيفَ يدها، في حركة دائبة سريعة فوق الطريق المعبّد الذلول[5]:

---

(١) معلقته: ١١.

(٢) العوجاء: الضامرة. مرقال: سريعة. تروح وتغتدي: أي تصل آخر النهار بأوله في السير.

(٣) معلقته: ١٢.

(٤) أمون: الموثقة الخلق التي يؤمن عثارها. الإران: التابوت. نسأتها: زجرتها. واللاحب: الطريق البيّن. والبرجد: كساء مخطّط.

(٥) معلقته: ١٣، ١٤.

تَربَّعَتِ القُفَّيْنِ في الشَّوْلِ تَرْتَعي حَدائِقَ مَوْلِيِّ الأَسِرَّةِ أَغْيَدِ[1]
تُبارِي عِتاقاً ناجِياتٍ وأَتْبَعَتْ وَظيفاً وَظيفاً فوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ[2]

ويقف طرفة عند سرعتها في غير بيت من أبيات معلقته، فيقلّب المعاني على وجوهها، ويتفنن في عرض صور تلك السرعة، من خلال وصفه أعضاءها التي خُلِقَتْ في هيئة، تعينها كل العون على السرعة.

فهي سريعة الوَخْد، تنقل قوائمها بخفة وسرعة عجيبتين، لأنّ يدها في أصل خلقتها مرنة الحركة، وليست بكزّة ولا جاسية، بل إن يديها مفتولتان أشد الفتل، وعضديها أميلا تحت صدر، كأنه سقف، أُسنِد بعض حجارته إلى بعض[3]:

صُهابِيَّةُ العُثْنونِ مُؤْجَدَةُ القَرا بَعيدةُ وَخْدِ الرِّجْلِ مَوّارةُ اليَدِ[4]
أُمِرَّتْ يَداها فَتْلَ شَزْرٍ وأُجْنِحَتْ لهَا عَضُداها في سَقيفٍ مُسَنَّدِ[5]

وهي تميل في سيرها حدة ونشاطاً، وتندفق في سرعتها اندفاقاً، يعينها على ذلك كتفان عاليان مشرفان[6]:

جَنوحٌ دُفاقٌ عَنْدَلٌ ثُمَّ أُفْرِعَتْ لها كَتِفاها في مُعالًى مُصَعَّدِ[7]

---

(١) تربعت: رعت الربيع. والقفّ: ما ارتفع من الأرض. وفي الشول: أي تربعت مع الشول، وهي التي أتى عليها من نتاجها أشهر. والمولِيّ: الذي أصابه المطر الوليّ، وهو مطر يلي مطراً قبله. والأغيد: المتثني من النعمة.

(٢) العتاق: كرام الإبل. والناجيات: السراع. والمور: الطريق.

(٣) معلقته: ٢٣، ٢٤.

(٤) الصهبة: أن يخلط بياضها حمرة، والمؤجدة: الموثّقة الشديدة. والقرا: الظهر. والوخد: أن تزجّ بقوائمها وتسرع. وموّارة: مضطربة.

(٥) أُمِرَّتْ يداها: فتلت فتلاً شديداً. والشزر: أن يفتل من أسفل الكف إلى فوق. وأجنحت: أميلت. والسقيف ها هنا: زورها وما فوقه.

(٦) معلقته: ٢٥.

(٧) الجنوح: التي تجنح في سيرها أي تميل سرعة ونشاطاً. والدفاق: السريعة. والعندل: الضخمة الرأس. وأفرعت: عوليت وأشرفت. والمُعالَى والمصعَّد: المُرفَّع إلى فوق.

وهي طيّعة ذَلولٌ، إن شاء لم ترقل، وإن شاء أرقلت، فنفضت رأسها بشدة وأسرعت، مخافة السوط المفتول[1]:

وإنْ شِئْتُ لَمْ تُرْقِلْ، وإنْ شئتُ أَرْقَلَتْ مَخافَةَ مَلْوِيٍّ منَ القِدِّ مُحْصَدِ[2]

وإذا ما لوّح لها بالسوط أسرعت عند اشتداد الحر، واضطراب السراب في الأرض الحزن الصلبة، المتوقدة الحصى بلهيب الهاجرة[3]:

أَحَلْتُ عَلَيْها بالقَطيعِ فأَجْذَمَتْ وقَدْ خَبَّ آلُ الأَمْعَزِ المُتَوَقِّدِ[4]

وتراها حين تومىء برأسها إلى الأرض، وتدنيه منها تزداد سرعة على سرعة.

وهي من فرط نشاطها وحيويتها دائمة الضرب بذنبها، فطوراً تضرب به خلف رديف راكبها، وتارة تضرب به على ضرعها الذاوي المنقبض الخاوي من اللبن[5]:

فَطَوْراً بِهِ خَلْفَ الزَّمِيلِ وتارةً على حَشِفٍ كالشَّنِّ ذاوٍ مُجَدَّدِ[6]

وقد يأتي وصف طرفة لناقته السريعة النشيطة الجريئة الدؤوب، في إطار من وصف الطبيعة، فإذا نحن أمام لوحة طبيعية شائقة، خطتها ريشة شاعر فنان صناع[7]:

وبِلادٍ زَعِلٍ ظِلْمانُها كالمَخاضِ الجُرْبِ في اليَوْمِ الخَدِرْ[8]

---

(١) معلقته: ٣٧.

(٢) الإرقال: أن تنفض رأسها لشدّة سيرها. والملوي: السوط المفتول. والقِدّ: ما قُدّ من الجلد. والمحصد: الشديد الفتل.

(٣) معلقته: ٤٢.

(٤) أحلت عليها بالقطيع: أقبلت عليها بالسوط وصببته عليها. وأجذمت: أسرعت. وقد خبّ: أي جرى واضطرب. والآل: السراب. والأمعز: المكان الغليظ الكثير الحصا.

(٥) معلقته: ١٧.

(٦) الزميل: الرديف. والحشف: الضرع المنقبض. والمجدَّد: الذاهب اللبن.

(٧) معلقته: ٢٩ ـ ٣١.

(٨) الزعل: النشيط. والظلمان: ذكور النعام. والمخاض: الحوامل من الإبل. الجرب: لأنها سود من القطران، وهو أشبه لها بالنعام. والخَدِر: الذي يخدر فيه لشدّة برده أو لمطر وريح يكون فيه فتنضمّ فيه المخاض وتجتمع.

قَـدْ تَـبـطَّنْتُ وتـحتي جَسْـرَةٌ تَتَّقي الأَرْضَ بمَـلثُـومٍ مَعِـرْ[1]
فَتَـرى المَـرْوَ إذا مـا هَجَّـرَتْ عَنْ يَدَيْها كـالفَراشِ المُشْفَتِـرْ[2]

إنه وصف لناقته، دخل إليه بعد تنويه بالبلاد الخالية التي غشيها، وهي تحته، وهي بلاد فيها نعام نشيطة، تشبه إبلاً حواملَ جُرْباً، هُنِئَتْ بالقطران، فاسودّ لونها، وتجمّعت كما تتجمّع المخاض وتنضمّ في اليوم البارد. وقد لاحظ في تشبيهه هذا اللونَ والهيئة في تجمّع الظلمان وانضمامها، كما لاحظ، إذ وصفها بالنشاط، أنها آمنة في هذه البلاد، فلا أحد من الإنس يروعها، وهذا دليل وحشتها، إذ هي خالية من الناس. وقد تبطّنها طرفة، أي دخل بطونها غير هيّاب ولا وجل من المجهول الذي يقتحمه.

ومن هنا انطلق يصف ناقته التي كان يمتطيها حين تبطّن تلك البلاد، فإذا هي طويلة، نشيطة، جريئة على الأهوال، دؤوب على السير في الأرض الحزن، حتى إن خفّها لثمته الحجارة، فأدمته وأسقطت ما حوله من الشعر.

ويمضي في وصف دأبها على السير، وقوة وقع يديها على الأرض الصخرية الوعرة، ففي الهاجرة، وعلى صعوبة السير فيها، ترى الحجارة البيض تتطاير تحت وقع يديها، كما يتطاير الفراش متفرّقاً حول السراج.

وهو وصف حي لقوة الناقة وصلابة قوائمها، وجلَدها، يرسمه في صورة من التشبيه التمثيلي شاخصة، تلقي ظلال القوة والمضاء على هذه الناقة من جهة، وعلى الأهوال الشداد التي كان يركبها طرفة من جهة أخرى، في رحلاته المحفوفة بالمخاطر في قلب الصحراء.

ومن صفات ناقة طرفة أنها متنبّهة حسّاسة مرهفة، تعطف إلى صوت الفحل المهيب بها، وتتّقيه بذنبها ذي الخصل الذي يشبه في تقلّبه جناحَيْ نسر أحمر يضرب إلى البياض[3]:

---

(١) تبطنت: دخلت. والجسرة الطويلة. والملثوم: أراد خفّها الذي لثمته الحجارة فأدمته، وأشار بذلك إلى دؤوبها في السير. والمعر: الذي ذهب ما حوله من الشعر.
(٢) المرو: الحجارة البيض. والمشفتر: المفترق.
(٣) معلقته: ١٥، ١٦.

تَريعُ إلى صَـوْتِ المُهيب وتَتَّقي بذي خُصَلٍ رَوْعاتِ أكْلَفَ مُلْبِدِ(١)
كـأنَّ جَنـاحَيْ مَضْـرَحِيٍّ تَكَنَّفـا حِفافَيْهِ شُكّا في العَسِيب بِمِسْرَدِ(٢)

وهي، على سرعتها وتنبّهها، ذات هيكل ضخم شديد، قام على أعضاء قوية صلبة دقيقة الخَلْق محكمة الصنع(٣):

لَها فَخِذانِ أُكْمِـلَ النَّحْضُ فيهما كـأنَّهمـا بـابـا مُنيفٍ مُمَـدَّدِ(٤)
وطَيٌّ مَحـالٍ كـالحَنِيِّ خُلوفُـهُ وأجْـرِنَةٌ لُـزَّتْ بِـدَأْيٍ مُنَضَّـدِ(٥)
كـأنَّ كِنـاسَيْ ضـالَـةٍ يَكْنُفـانِهـا وأطْرَ قِسِيٍّ تحتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدِ(٦)
لَهـا مَـرْفِقـانِ أفْتَلانِ كـأنّمـا أُمِـرّا بِسَلْمَيْ دالِـجٍ مُتَشَـدِّدِ(٧)
كَقَنْـطَرةِ الـرُّوميِّ أقسَـمَ رَبُّهـا لَتُكْتَنَفَنْ حتّى تُشـادَ بِقَـرْمَـدِ(٨)

فهي ذات فخذين مكتنزي اللحم، انتصبا كأنهما بابا قصر عال مشرف. وفقار ظهرها متراصفة متدانية متراصّة، وكذلك فقار عنقها، وضلوعها المتصلة بهذه الفقار منحنية واسعة كالأقواس المعطوفة، فجوفها واسع، وباطن عنقها وما حوله مشدود إلى فقار عنق نضّد بعضه على بعض. وهي واسعة الإبطين، مأمونة العثار،

---

(١) تريع إلى صوت المهيب: أي ترجع وتعطف إلى صوت الفحل المهيب بها. والخصل: شعر الذنب. والأكلف: الذي يشوب حمرته سواد. وملبد: ذنب الفحل المتلبّد.

(٢) النسر المضرحي: الأحمر الضارب إلى البياض. تكنّفا: صارا عن يمين الذنب وشماله. وحفافاه: جانباه. العسيب: عظيم الذنب. والمسرد: المخرز.

(٣) معلقته: ١٨ - ٢٢.

(٤) النحض: اللحم. والمنيف: قصر مشرف. والممدّد: الأملس.

(٥) طيّ محال: أي لها فقار ظهر متراصفة. والحنيّ: جمع حنية، وهي القوس. والخلوف: مآخير الأضلاع. والأجرنة: جمع جران، وهو باطن الحلقوم. ولزّت: ألصقت. والدأي: فقار العنق. والمنضّد: الملصق بعضه ببعض.

(٦) الكناس: ما يحتفره الثور الوحشي في أصل الشجرة يكنّه من الحر والبرد. والضال: شجر. وأطر قسيّ: قسيّ معطوفة. والمؤيّد: المشدّد.

(٧) أفتلان: متجافيان عن زورها. وأُمِرّا: فُتّلا. والسلم: الدلو. والدالج الذي يدلج بالدلو إلى الحوض. متشدد: لأنه يتشدّد إذا باعد عضديه عن زوره.

(٨) التكتنفن: لتؤتين من أكنافها، أي من نواحيها. والقرمد: الآجر.

كأن الفراغ بين مرفقيها وزورها كناسان، احتفرهما ثور وحشي في شجرة السدر. أما ضلوعها فقد بدت كالقسيّ المأطورة تحت صلبها المتين.

ويلح طرفة على هذا المعنى، ليبرز ناقته شديدة ضخمة الهيكل، فيأتي بتشبيه آخر لمرفقيها المتجافيين البائنين عن زورها، فكأنهما يدا حامل دلوين، يباعدهما عن ثيابه، ويتشدّد في مباعدتهما.

ويتمم خياله صورتها، وقد انتصبت ضخمةً عالية أجمل ما تكون الضخامة، قويةً أشد ما تكون القوة، فيشبهها بقنطرة الرومي المحكمة الصنع، أقسم ربُّها الصّناع أن يُحْكَم بناؤها، وتُحاطَ بالآجر من كل جانب.

ولا يفوت هذا الشاعر الوصّاف الفنّان، المحدّق المدقِّق في كل جزء من جسم ناقته أن يقف عند آثار حبال الرحل في ضلوع صدرها، ويصورها تصويراً، كلّه إحكام، وكلّه دقة وحسن هندسة[1]:

كـأنَّ عُلوبَ النِّسْعِ في دَأَيـاتِهـا ... مَوارِدُ مِنْ خَلْقاءَ في ظَهْرِ قَرْدَدِ[2]
تَـلاقَى وأَحْيـانـاً تَبِينُ كـأنّهـا ... بَنـائِقُ غُـرٍّ في قميصٍ مُقَـدَّدِ[3]

لقد بدت هذه الآثار في الصورة التي خطتها ريشة طرفة كأنها طرق الوُرّاد إلى الماء في الصخرة الملساء في الأرض المستوية الصلبة، وهذه الآثار تتلاقى أحياناً، وتتفرق أحياناً، كأنها رقع بيض في قميص قديم مشقَّق. ولا يخفى ما في هذين التشبيهين من دقة وعناية وإحكام، لتبرز تلك الآثار واضحة للعيان، وتدل على نشاط هذه الناقة وما تبذله من جهد في إرقالها السريع.

وينتقل من وصف هيكلها العام إلى وصف عنقها ورأسها وما فيه من أعضاء،

---

(١) معلقته: ٢٦، ٢٧.

(٢) العلوب: الآثار. النسع: حبال الرحل. دأياتها: ضلوع صدرها. موارد: طرق الوُرّاد. والخلقاء: الصخرة الملساء. والقردد: ما استوى من الأرض وصلب. وجعل الصخرة في قردد، لأن ذلك أصلب لها.

(٣) تلاقى: أي الموارد. وتبين: تتفرّق، وبنائق: رقع. وغرّ: بيض. ومقدّد: خَلَقَ.

فيقف عند كل عضو من هذه الأعضاء وقفة فنان مصور، شدّها إلى وتد وراح يصور تلك الأعضاء.

إنها ذات عنق طويل مرتفع مشرف، إذا رفعته بدا كعمود مرتفع لسفينة تمخر عباب دجلة(١):

وأَتْلَعُ نَهّـاضٌ إذا صَعِـدَتْ بِـهِ   كَسُكّانِ بُوصِيٍّ بِدِجْلةَ مُصْعِدِ(٢)

وجمجمتها كالسندان في صلابتها، كأنها قطعة واحدة في التآمها، إذ انضمّت نتوء الملتقى فيها والتأمت كالتئام المبرد من تحت حزوزه(٣):

وجُمْجُمـةٌ مثـلُ العَـلاةِ كَـأَنَّمـا   وَعَى المُلْتَقى مِنْها إلى حَرْفِ مِبْرَدِ(٤)

وهو تشبيه دقيق فريد من نوعه، شهد بذلك الأصمعي إذ قرّظه بقوله: «لم يأت أحد بهذا التشبيه غير طرفة»(٥).

وعيناها صافيتان صفاء المرآة، استقرتا في كهفين من عظم العين، الذي بدا في تجويفه كنقرة في صخرة تمسك الماء(٦):

وعَيْنـانِ كـالمـاوِيَّتَيْنِ اسْتَكَنَّتـا   بِكَهْفَيْ حِجاجَيْ صَخْرَةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ(٧)

وهما عينان صحيحتان، تدفعان بالقذى إن سقط فيهما منه شيء، مكحولتان كعيني بقرة وحشية مذعورة ذات ولد(٨):

---

(١) معلقته: ٢٨.
(٢) أتلع: مشرف طويل. ونهّاض: مرتفع. والسكّان: عود المركب. والبوصي: السفينة.
(٣) معلقته: ٢٩.
(٤) العلاة: السّندان. وعى الملتقى: انضم وجُبر.
(٥) ديوانه بشرح الأعلم: ١٨.
(٦) معلقته: ٣٠.
(٧) الماويّة: المرآة. استكنّتا: حلّتا. والكهف: الغار، وأراد به غار العين. والحجاج: عظم العين. والقلت: نقرة في الحجر تمسك الماء. والمورد: الماء. وجعلت القلت مورداً، لأن صخرة الماء أصلب.
(٨) معلقته: ٣١.

طَحورانِ عُوّارَ القَذَى فَتَراهُما كَمَكْحولَتَيْ مَذْعورَةٍ أُمِّ فَرْقَدِ[1]

وأذناها مرهفتان، تلتقطان ما يخيل لها الخوف والحذر في الليل، من صوت خفيّ أو بيّن[2]:

وصادِقَتا سَمْعِ التَّوَجُّسِ لِلسُّرَى لِجَرْسٍ خَفِيٍّ أَوْ لِصَوْتٍ مُنَدَّدِ[3]

وهما أذنان محدّدتان، يتبيّنُ فيهما الكرم، كأنهما أذنا ثور مفرد، متوحش، متوجّس، متنبه السمع، مرتاع[4]:

مُؤَلَّلَتانِ تَعْرِفُ العِتْقَ فيهما كَسامِعَتَيْ شاةٍ بِحَوْمَلَ مُفْرَدِ[5]

وخدُّها أبيض جميل كقرطاس الشآمي، لا شعر فيه، ومشفرها طويل كنعال الجلد اليماني، ليّن، لم يجرَّد من الشعر[6]:

وخَدٌّ كقِرْطاسِ الشَّآمِي ومِشْفَرٌ كَسِبْتِ اليَماني قِدُّهُ لَمْ يُجَرَّدِ[7]

ولون عثنونها جميل، يدل على عتقها ونجابتها، فهي صهابية العثنون، وهذه الصهبة في بياضها المشوب بحمرة نجار النجائب من النوق[8]:

---

(١) الطحوران: الدفوعان الطرودان. وعوّار القذى: قطعة من الرمد. والقذى: وسخ العين وما سقط فيها. وأضاف العوار إلى القذى، لأن العين إذا رمدت قذيت. يريد أن عينيها صحيحتان لم يصبهما عوار. كمكحولتي مذعورة: يريد كعيني بقرة مذعورة، وإذا كانت مذعورة كان أحمد لنظرها وأبين لحسن عينيها. والفرقد: ولد البقرة.

(٢) معلقته: ٣٣.

(٣) صادقتا: يعني أذنيها. والتوجس: الخوف والحذر. والمندد: الصوت المرتفع.

(٤) معلقته: ٣٤.

(٥) مؤلّلتان: محدّدتان كتحديد الحربة. والعتق: الكرم. والسامعتان: الأذنان. وحومل: اسم رملة. مفرد: جعله مفرداً لأنه أشد توحّشاً وحذراً، إذ ليس معه وحش يلهيه ويشغله ويؤنسه، فانفراده أشدّ لسمعه وارتياعه.

(٦) معلقته: ٣٢.

(٧) كقرطاس الشآمي: في بياضه ونعومته. والسبت: جلود البقر المدبوغة. والقِدّ: ما قُدّ من الجلد. ولم يجرَّد: أي لم يلق الشعر من عليه، فهو ألين له وأحسن.

(٨) معلقته: ٢٣.

صُهابِيَّةُ العُثْنونِ مُوجَدَةُ القَرا بَعيدَةُ وَخْدِ الرِّجْلِ مَوّارَةُ اليَدِ[1]

ومما وقف عنده طرفة في وصف ناقته هيئتُها الجميلة، وهي مسرعة، إذ رسم عنقها الطويل المشرف، وقد سامى واسط الرحل، على حين راحت تسبح بعضديها سبحاً في سرعة الخفيدد، ذكر النعام[2]:

وإنْ شِئْتُ سامَى واسِطَ الكُورِ رَأْسُها وعامَتْ بِضَبْعَيْها نَجاءَ الخَفَيْدَدِ[3]

إنها لصورة جميلة بارعة لهيئة هذه الناقة المسرعة وحركتها، وقد انتصب عنقها مرتفعاً عالياً مشرفاً، على حين راحت تمد يديها كما يمدهما السابح في حركة سريعة دائبة.

ومن هذا الباب وصفه تبخترها في مشيتها، كما تتبختر الوليدة أمام ربها، مرخية أذيال ثوبها الأبيض[4]:

فَذَالَتْ كما ذالَتْ وَلِيدَةُ مَجْلِسٍ تُري رَبَّها أَذيالَ سَحْلٍ مُمَدَّدِ[5]

وهي صورة رشيقة، تبرز جمال مشية الناقة، وتعكس حبه لها، وافتتانه بمشيتها، إلى حد يسامي التغزل بتلك المشية المتبخترة الرشيقة.

ولم يكتف طرفة بوصف أعضاء ناقته الظاهرة وسرعتها، وضروب مشيتها، وضخامة هيكلها، فغاص على قلبها، وتخيّله أقوى وأشدّ وأنشط ما يكون القلب، ووصفه بما يبرز قوته وحدّته ونشاطه وصلابته[6]:

وأَرْوَعُ نَبّاضٌ أَحَذُّ مُلَمْلَمٌ كَمِرْداةِ صَخْرٍ مِنْ صَفيحٍ مُصَمَّدِ[7]

---

(١) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٣

(٢) معلقته: ٣٦.

(٣) واسط الكور: العود الذي بين مورك الرحل ومؤخّرته. والكور: الرحل. وضبعاها: عضداها. والنجاء: السرعة.

(٤) معلقته: ٤٣.

(٥) ذالت: أي ماست في مشيتها وتبخترت. والسحل: الثوب الأبيض. وممدّد: مرسل إلى الأرض.

(٦) معلقته: ٣٥.

(٧) الأروع: القلب الحديد المرتاع لحدّته. والنبّاض: المضطرب من الفزع. والأحذّ: الأملس. والململم: المجتمع. والمرداة: صخرة تدقّ بها الحجارة، ولا تكون إلا صلبة. والصفيح: صخر عريض. والمصمّد: المشدّد المصمّت.

إنه قلب حديد، مرتاع، نبّاض، أملس، منقبض، كأنه صخرة صلبة، تَدَق بها الحجارة، ولا ريب أن الناقة التي تحمل هذا القلب بين جنبيها هي ناقة من أقوى النوق وأنشطها وأنجبها.

ونخلص إلى القول: إن ما تقدم من وصف طرفة للناقة وصفاً دقيقاً بارعاً، ليدل على مدى حفاوة طرفة بهذا الوصف، وانفعاله به، وعلى أن الناقة لم تستحوذ على اهتمامه هذا الاستحواذ، ولم تستقطر من عصارة قريحته الشعرية ما استقطرت، إلا لأنها كانت في معظم سني حياته رفيقه الأمين، وصاحبه الوفي، وأنيسه الأثير.

لقد رأينا في مستهل وصفه للناقة أنه كان من عادته إذا دجا داجي الهموم في حياته ارتحل على ناقته، ليبدد حنادس همه، ويزيل غواشي كربها. وها نحن أولاء نراه في ختام وصفه للناقة، بعد أن أوفى على الغاية في وصفها يقول[1]:

على مِثْلِها أَمْضي إذا قالَ صاحِبي ألا لَيْتَني أَفْديكَ مِنْها وأُفْتَدي[2]

فناقته التي يمضي بها همه، ويحقق رغائب نفسه، هي هذه الناقة التي وصف أو مثلها. وهذه الناقة هي عدّته وعتاده في الحلّ والترحال، وهي رفيقه وسميره في الفلوات، ما أظلم ليل وأشرق نهار.

وإذا ما أضفنا إلى هذا كله ولعَ طرفة بالوصف، ولهجه الشديد بتجويد الصورة وإحكامها، تجلّى لنا سرّ إبداعه الفذّ في وصف الناقة.

ب ـ وصف الخيل:

ارتبط وصف الخيل في شعر طرفة بالحماسة والفخر، فهي عنده وسيلة الفرسان المغيرين على الأعداء، وهي عدّة الكماة الصّيد الذّابّين عن الحمى والشرف، ومن ثَمّ جاء وصفه للخيل وصفاً جما عيّاً، منبثّاً في ثنايا فخره، بدت فيه الخيل متدفقة مغيرة على الأعداء، ولم يبد فيه الجواد الفرد المطهّم الجميل الصافن،

---

(١) معلقته: ٣٩.

(٢) أفديك منها: أي من الفلاة المخوفة المهلكة. وأضمرها ولم يجر ذكرها لأن سياق الكلام وذكر الناقة والسير في الفلاة يدلّ عليها.

الذي وقف صاحبه يرسم له لوحات شاخصة، يبرز فيها جماله وقوته وسرعته.

لقد اختلف صنيعه الفني في وصف الناقة عنه في وصف الخيل لهذا السبب، فهناك كان، في أغلب الأحيان، يقف وجهاً لوجه أمام الناقة، يلتقط لها الصور من كل جانب، وهنا وقف أمام الجمع المغير من الخيل، فوصفها وهي مندلقة إلى الغارة كأسراب الطير. ولعل هذا الاختلاف بين وصفه للناقة والخيل هو الذي حمل الرافعي على القول: «وصف طرفة النوق وصفاً شعرياً، ولكنه قصّر في وصفه الخيل»[1].

وسنرى بعد تحليل وصفه للخيل أنه لم يقصّر في صفة الخيل، بل كان له مذهب في وصفها، يختلف عن مذهبه في وصف الناقة، لارتباط الخيل عنده بالحماسة والفخر كما أسلفت.

ويقع وصف طرفة للخيل في قصيدته الثانية، وقصيدته الثانية عشرة؛ ففي قصيدته الثانية يدخل إلى وصف الخيل في حمّيا نشوة الفخر بشجاعة قومه، مهيباً بالشباب في مجلس قومه أن يجرّدوا لمهمّ الأمور خيولاً حمراً وشقراً أصيلة منسوبة ضُمّراً، حظيت بكمال الرعاية والعناية، وحسن القيام عليها[2]:

أيُّهـا الفِتْيـانُ فـي مَجْلِسِنـا ... جَـرِّدوا مِنْهـا وِراداً وشُـقُـرْ[3]

أعْـوَجِـيّـاتٍ طِـوالاً شُـزَّبـاً ... دُوخِـلَ الصَّنْعَةُ فيهـا والضُّمُرْ[4]

ويتخذ من هذا النداء منطلقاً لوصف الخيل التي أوصى الفتية من قومه بحيازتها وتجريدها للقاء، فتنساب أوصافها على لسانه بكلمات سريعات، فيهنّ دقة الوصف الذي رمى إليه، وغزير المعنى الذي دلت عليه[5]:

(١) تاريخ آداب العرب ٣/ ٢٢٥.

(٢) ديوانه بشرح الأعلم: ٦٣.

(٣) جرّدوا: أي ألقوا عنها جلالها وأخرجوها للقاء.

(٤) أعوجيات: منسوبة إلى أعوج، وهو فحل لغنيّ. والشزّب: الضمّر. دوخل الصنعة فيها: أحسن القيام عليها وتعهّدها. والضُمر: تضميرها.

(٥) ديوانه: ٦٤.

مِنْ يَعابِيبَ ذُكُورٍ وُقُحٍ وهِضَبّاتٍ إذا ابْتَلَّ العُذُرْ[1]
جافِلاتٍ فوقَ عُوجٍ عُجُلٍ رُكِبَتْ فيها مَلاطِيسُ سُمُرْ[2]

فهي طويلة، شديدة العدو، ذكور، سراع، شداد، تزداد سرعة إذا عرقت وابتل لجامها، ماضيات، منحدرات فوق قوائم عوج، سريعة الحركة، سمر الحوافر، صلبة شديدة.

وهي خيل طويلة الأعناق، تملأ العين بأعناقها المشرفة العالية، إذ تبدو للناظر إليها كجذوع نخل شُذِّب قشرها، فزاد ذلك في طولها. وفوق أيديها العالية انتصبت أوساطها واسعات الأجواف، رحيبات الصدور، تتيح لها التنفّس العميق السهل إذا أدركها الجهد والإعياء، فلا ينبهر لها نفس، ولا يضيق فيها صدر[3]:

وأَنافَتْ بِهَوادٍ تُلُعٍ كَجُذوعٍ شُذِّبَتْ عَنْها القُشُرْ[4]
عَلَتِ الأَيْدي بِأَجْوازٍ لَها رُحُبِ الأَجْوافِ ما إنْ تَنْبَهِرْ[5]

وهي سريعة العدو، إذا ما حمي جريها التوت أزر راكبيها، وطارت في الهواء[6]:

فَهْيَ تَرْدي فإذا ما أُلْهِبَتْ طارَ مِنْ إحْمائِها شَدُّ الأُزُرْ[7]

وتراها جميلة الهيئة، وهي تَرْدي مسرعة، قد رفعت أذنابها شائلات بها. وعند اشتداد الجري تنحرف وتميل على أحد شقّيها ممتدات منبسطات، تسح العدو سحّاً[8]:

---

(١) اليعابيب: جمع يعبوب، وهو الطويل الجسم من الخيل والسريع. والوُقُح: جمع وَقاح، وهو الصلب الحوافر. والهضبّات: السراع الشداد. والعذر: جمع عذار، وهو اللجام.

(٢) جافلات: ماضيات سريعات. عوج: قوائم فيها انحناء، وذلك مما تمدح به. والعُجُل: السِّراع. والملاطيس: جمع ملطاس، وهو اللجام. وهو معول يكسر به الصخر، شبه به الحوافر.

(٣) ديوانه: ٦٥.

(٤) أنافت: أشرفت. وهَوادٍ: أعناق. وتُلُع: طويلة.

(٥) الأجواز: الأوساط.

(٦) ديوانه: ٦٥.

(٧) تردي: تسرع. وأُلهِبَتْ: شدّد جريها.

(٨) ديوانه: ٦٥.

كـائِـراتٍ وتَـراهـا تَـنْـتَـحي مُسْلَحِبّـاتٍ إذا جَدَّ الحُضُـرْ[1]

فإذا ما جدّ الجدّ، وعلا الفرسان صهواتها، رأيتها مندلقة في الغارة كأسراب الطير، تمر قطعاً قطعاً، تحمل فرسانها إلى مستغيثيهم[2]:

دُلُقٌ الـغـارَةِ فـي إفْـزاعِـهِـمْ كَـرِعالِ الـطَّـيْـرِ أَسْـراباً تَـمُـرْ[3]

أما وصفه الخيل في قصيدته الثانية عشرة، فيأتي أيضاً بعد فخره بشجاعة قومه، إذ صوّرهم سادة بهاليل، يحمون السِّرب بسيوفهم ورماحهم، وبخيولهم الضخمة الصلبة، النجيبة، المنسوبة، السباقة، الضامرة، من كثرة تعلاك اللجم في ميادين الوغى[4]:

وفُـحـولٍ هَـيْـكَـلاتٍ وُقُـحٍ أَعْـوَجِيّـاتٍ على الشَّـأْوِ أُزُمْ[5]

وقَـنـا جُـرْدٍ وخَـيْـلٍ ضُـمَّـرٍ شُزَّبٍ مِنْ طُولِ تَعْلاكِ اللُّجُمْ[6]

وهو وصف رائع للخيل، صورها فيه من أحسن الخيل وأكرمها، بما حشد لها من صفات عالية كريمة.

ويمضي في وصف خيل قومه، فينوّه بأثر الصنعة في حسن القيام عليها وتعهّدها، حتى ظهرت متونها مكتنزة باللحم، ضامرة البطون، فجمعت بين محاسن الاكتناز ومزايا الضمر، وهذا أحسن ما توصلت إليه الصنعة في تربية الخيول[7]:

---

(١) كائرات: رافعات أذنابها شائلات بها، وإنما تفعل ذلك لشدّة أصلابها. وتنتحي: تنحرف في عدوها. والمسلحبّات: المنبسطات الممتدات في العدو. وجدّ الحضر: انكمش العَدْو واشتدّ.

(٢) ديوانه: ٦٦.

(٣) دلق: جمع دلوق، وهو المتقدم المسرع إلى الغارة. والرعال: قطع الطير. والأسراب: جمع سرب، وهو القطيع من الطير والظباء والنساء.

(٤) ديوانه: ١٠٨.

(٥) الهيكلات: جمع هيكل، وهو الضخم من الخيل. والوقح: جمع وَقاح، وهو الصلب الحافر. والأعوجيات: منسوبة إلى أعوج، وهو فحل من الخيل معروف بالنجابة. والشأو: الطلق والسبق. والأزم: العواض على الألجم.

(٦) قناجرد: يعني رماحاً ملساً. والشزّب: جمع شازب، وهو الضامر.

(٧) ديوانه: ١٠٨.

أَدَّتِ الصَّنْعَةُ في أَمْتُنِها ... فَهْيَ مِنْ تَحْتُ مُشِيحاتُ الحُزُمْ[1]

وهي، بعد، ذات حوافر منتفخة صلبة سود، تغوص في مرتفعات الأكم، وتتقي بها الأرض[2]:

تَتَّقي الأَرْضَ بِرُحَ وُقُحٍ ... وُرُقٍ يَقْعَرْنَ أَنْبَاكَ الأَكَمْ[3]

وقد تفرّى لحمها وذاب من كثرة تعدائها، حتى غدت في صلابتها وضمرها كالنّوى[4]:

وتَفَرَّى اللَّحْمُ مِنْ تَعْدائِها ... والتَّغالي فَهْيَ قُبٌّ كَالْعَجَمْ[5]

وهي شديدات العدو، ملحّات في الجري، إذ ارتفعت الأيدي ملوّحة لها بالسياط، وفي ذلك وصف لها برهافة الحسّ، وفرط النشاط، وسرعة الشدّ[6]:

خُلُجُ الشَّدِّ مُلِحّاتٌ إذا ... شالَتِ الأَيْدي عَلَيْها بالجِذَمْ[7]

ولا تراها إلا مندفعة إلى الغارة، متقدّمة الخيل، منسلخة عنها، مسرعة إلى الداعي المستصرخ المستغيث، الذي خصّ بدعوته آل الشجاعة والنجدة، ثم عمّ بدعائه الناس جميعاً، لما كان يلقى من الفزع والكرب الشديد[8]:

قُدُماً تَنْضُو إلى الدّاعي إذا ... خَلَّلَ الداّعي بِدَعْوَى ثُمَّ عَمْ[9]

---

(١) الصنعة: القيام على الخيل بالعلف. وأراد: ظهر أثر العناية في متونها فاكتنزت باللحم. ومن تحت: أي من تحت متونها. ومشيحات الحزم: أي لحقت بطونها بظهورها من الضمر وارتفعت حزمها.

(٢) ديوانه: ١٠٨.

(٣) حوافر رُحّ: أي منتفخة. ووُقُح: صلبة. ووُرُق: أي هي أقرب إلى السواد. ويقعرن: يدخلن. والأنباك: جمع نَبَك، وهي الأرض المرتفعة.

(٤) ديوانه: ١٠٩.

(٥) تفرّى: تقطّع وذهب. والتغالي: التباري في العدو. وقب: جمع قبّاء، وهي الضامرة البطن. والعجم: النوى. شبه الخيل في ضمرها وصلابتها به.

(٦) ديوانه: ١٠٩.

(٧) خلج الشدّ: تجذب قوائمها بسرعة ونشاط في عدوها. والملحّات: التي تلحّ في الجري وتديمه. والجذم: السياط.

(٨) ديوانه: ١١٠.

(٩) تنضو إلى الداعي: أي تتقدم الخيل. وخلّل: خصّ.

وأحسب أنني، فيما قدمت من وصف طرفة للخيل، قد أزحت الستارة عن لوحة الخيول الجياد التي رسمها طرفة في شعره، وإنها لخيول أصيلة قوية سريعة جميلة، تدل على سيادة مقتنيها وعزتهم وغناهم.

وصور طرفة في وصفه الناقةَ والخيلَ عامة تقوم على تشبيهات منتزعة من البيئة التي تقلّب فيها، ووقع عليها بصره. ومن ثَمّ ارتسم في تشبيهاته كناس الثور الوحشي في شجرة السدر، وسفن البحرين ودجلة، وقنطرة الرومي. وكلها من مرئياته في البيئة الواسعة التي ارتادها في رحلاته وأسفاره.

وهي صور محكمة الهندسة والبناء، دقيقة التشبيه، خص فيها المشبه به بعناية فائقة، ليثبت لمشبَّهه الصفة المشتركة بينهما، بحيث يكون في الغاية من هذه الصفة، وليبرزه في أحسن حالة وأكملها؛ فناقته ضخمة عالية كالقنطرة، ولكنها ليست كأي قنطرة، إنها كقنطرة الرومي المتقن، المدقّق في إحكام بنائه واستوائه وحسن تشييده[1]:

كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رَبُّهَا لَتُكْتَنَفَنْ حتّى تُشادَ بقَرْمَدِ[2]

وعيناها مكحولتان كعيني بقرة وحشية، ولكنها ليست كأي بقرة، إنها بقرة وحشية مذعورة ذات ولد، لأنها إذا كانت ذات ولد وذعرت من أجله، وتشوّفت نحوه، وأحدّت النظر إشفاقاً عليه، كان ذلك أحمد لنظرها، وأبين لحسن عينيها[3]:

طَحورانِ عُوّارَ القَذَى فَتَراهُما كَمَكْحولَتَيْ مَذْعُورَةٍ أُمِّ فَرْقَدِ[4]

لقد كان همه إثبات القوة والمتانة والجمال لكل عضو من أعضاء ناقته، ولذلك عندما أراد تصوير عظم عينيها شبهه بنقرة في صخرة تمسك الماء، فهي ليست كأي صخرة، إنها صخرة تمسك الماء، لأن صخرة الماء أصلب من غيرها من الصخور[5]:

---

(١) معلقته: ٢٢.

(٢) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٦.

(٣) معلقته: ٣١.

(٤) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٩.

(٥) معلقته: ٣٠.

وعَيْنـانِ كَـالْمـاوِيَّتَيْنِ اسْتَكَنَّتـا بِكَهْفَيْ حِجاجَيْ صَخْرَةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ[1]

وقد توصّل طرفة إلى رسم صورة واضحة لناقته القوية النشيطة الجميلة، تارة بالتشبيهات المحكمة على النحو الذي رأينا آنفاً، وتارة بالألفاظ والتعابير السريعة المتخيّرة، التي تحمل الأوصاف المميّزة المركّزة، كقوله[2]:

وإنّي لأُمْضي الهَمَّ عندَ احْتِضارِهِ بِعَوْجاءَ مِرْقالٍ تَـروحُ وتَغْتَدي[3]

وقوله[4]

جَنُـوحٌ دُفاقٌ عَنْـدَلٌ ثُمّ أَفْـرِعَتْ لها كَتِفاهـا في مُعالًى مُصَعَّـدِ[5]

وقوله[6]

صُهـابِيّةُ العُثْنـونِ مُـؤْجَـدَةُ القَـرا بَعيدَةُ وَخْدِ الرِّجْلِ مَوّارَةُ اليَدِ[7]

فكل لفظ أو عبارة في هذه الأبيات رسم خطّاً من خطوط الصورة الكبيرة لتلك الناقة، وحدّد صفة من صفاتها المميّزة، ولا ريب أن هذه الإشارات السريعة بكلمات معدودات، ورسمها تلك الخطوط الواضحة في الصورة الكبيرة، من العبقرية الشعرية التي تُحسَب لطرفة، وهي تشكل جانباً هاماً من جوانب موهبته في فن الوصف، إلى جانب تجويده التشبيه، وتأنّيه في إحكامه.

ومن صوره الجميلة في وصف الخيل التي رسمها بألفاظه المفردة المتتابعة، مستعيناً بالكناية والاستعارة أيضاً، قوله[8]:

---

(١) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٨.
(٢) معلقته: ١١.
(٣) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٢.
(٤) معلقته: ٢٥.
(٥) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٣
(٦) معلقته: ٢٣.
(٧) تقدم البيت وشرحه ص ١٠٣
(٨) ديوانه: ٦٧.

مِنْ يَعابِيبَ ذُكُورٍ وُقُحٍ   وهِضَبّاتٍ إذا ابْتَلَّ العُذُرْ[1]
جافِلاتٍ فوقَ عُوجٍ عُجُلٍ   رُكِّبَتْ فِيها مَلاطِيسُ سُمُرْ[2]

وألفاظ طرفة في وصف الناقة والخيل، فخمة جزلة، يركب فيها متن الغريب، ويوغل فيه، على حين هي في الفخر، على جزالتها ومتانتها، مأنوسة واضحة، لا تضن بمعانيها إلا قليلاً. وهذا الاختلاف في وعورة اللفظ وحوشيه، وسهولته وقربه، إنما يرجع إلى طبيعة الموضوع الذي يطرقه الشاعر، وطرفة في وصف الخيل والناقة والصحراء وما يتصل بها بسبب، يحتطب ألفاظه من حطب الصحراء الجزل، ويلملم تعابيره من فلواتها الموحشة وأوابدها الشُّرود.

(١) تقدم البيت وشرحه ص ١١٣.
(٢) تقدم البيت وشرحه ص ١١٣.

٣

الفخر

ولد طرفة في بيت كريم، ينتمي إلى القبيلة العربية الكبيرة بكر، وأحس منذ نشأته بشرف انتمائه إلى هذه القبيلة وذاك البيت، إذْ سمع عن الأيام التي خاضتها قبيلة بكر، وكانت لها فيها الغلبة على خصيمتها التقليدية تغلب، وترددت على مسامعه المآثر العربية الأصيلة التي عُرف بها أجداده من كرم وشجاعة ووفاء وعزة وحلم وإباء، فورثها عنهم، وتعشقتَها نفسه.

وكان طرفة في ميعة صباه وريعان شبابه، تتوق نفسه إلى التغنيّ بشرف النسب وكريم المحتد وحميد الفعال، وواتته النّبعة الشاعرية الثّرّة في هذا المجال، يمدّها رصيد ضخم من تاريخ قبيلته وأيامها ، وإرث عظيم من خلائقهم ومحامدهم، واستعداد نفسي ذاتي كامن في طبيعة طرفة للزهو والتيه والترفع والمباهاة والمبالغة في إسباغ الخلائق الحميدة عليه وعلى قومه، فكان له من هذا كله شعرٌ حي غزير في الفخر، يتدفق باللفظ الكريم الفحل، والصورة الشاخصة الرائعة، والنبض العاطفي الصادق.

والفخر في شعر طرفة لونان: فخر ذاتي يتغنى فيه بخلائقه وسجاياه، وفخر جماعي يشدو فيه ألحان القبيلة، ويثمل بتجلية سيرتها ومحامدها للناس.

أما فخره الذاتي فكان إرضاء لنزعة الاعتداد بالنفس، وتحقيقاً لذاته المتفتّحة على الحياة، ولا نكاد نجده إلا في معلقته. أما في قصائده الأخرى فهو نزر يسير، لا يكاد يوجد إلا في قصيدته الثانية وقصيدته السابعة عشرة، يبدأ به، ثم لا يلبث أن يتحول إلى الفخر الجماعي.

وأما فخره الجماعي، فقد انبثّ في معظم قصائده، فأنت تراه واضحاً صريحاً منذ البدء حتى الختام في قصائده: الخامسة، والثانية عشرة، والخامسة عشرة، والسادسة عشرة. ومن ثَمّ كان الفخر بلونيه من الأغراض الكبرى التي استولت على مشاعر طرفة، فحباها عصارة تفكيره، وضمّنها كريم قصيده.

أ ـ فخره الفردي:

فاضت نفس طرفة بشعر الفخر الذاتي الذي يعزف فيه نغمات الاعتداد بالنفس، ويعدّد ما تحلّى به من صفات وأخلاقْ، كان يراها حلية الشابّ الشجاع، وقوام شخصية الفتى الأبي الكريم.

ومن هنا كانت النغمة الواضحة في هذا الفخر تنبعث من ضمير المتكلم المفرد (أنا)؛ إذ الفخر الفردي يدور حول محور الذات، وما اتصفت به من صفات.

إنه ليفخر باستجابته لدعوة الداعي، ولو لم يكن مُنادًى باسمه، وكأنه يرى في تلك الاستجابة أعلى مراتب المروءة والنخوة وإغاثة المستغيث[1]:

إذا القَوْمُ قالوا: مَنْ فتىً؟ خِلْتُ أنّني ... عُنِيتُ، فلَمْ أكْسَلْ ولَمْ أتَبَلَّدِ

ويفخر بمَنَعته وتسلّحه، وهذا شأن الشجعان المتأهبين لكل غارة، فالسيف ملازم له، وإنه لسيف بتّار، لا يفلُّ له حد، ولا ينبو عن ضريبة[2]:

وآلَيْتُ لا يَنْفَكُّ كَشْحي بِطانَةً ... لِعَضْبٍ رَقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ[3]

أَخِي ثِقَةٍ لا يَنْثَني عَنْ ضَرِيبَةٍ ... إذا قِيلَ مَهْلاً قالَ حاجِزُهُ قَدِي[4]

---

(١) معلقته: ٤١.

(٢) معلقته: ٨٣.

(٣) آليت: أقسمت. والكشح: الخاصرة وما انضم عليه الأضلاع. والعضب: السيف القاطع. وشفرتاه: حدّاه. والمهنّد: السيف المحكم المصنوع ببلاد الهند.

(٤) أخي ثقة: يعني السيف، أي يوثق بمضائه وحدّه. وحاجزه: الذي يحجز به، أي يقطع. وقدي: حسبي. يقول: إذا أمر حاجزه بالتأني والرفق أعجله السيف لمضائه أن يمهل فقال: قدي، أي قد فرغ من القطع ومضى.

حُسامٍ إذا ما قُمْتُ مُنْتَصِراً بِهِ كَفَى العَوْدَ مِنْهُ البَدْءُ ليسَ بمُعْضَدِ[1]

ويفخر بمكانته وقوته وجرأته وكرم أصله، مما دفع عنه عداوة الأفراد والجماعات، ونفى عنه إقدام الرجال وتسرّعهم بالمساءة إليه[2]:

فلَوْ كُنْتُ وَغْلاً في الرِّجالِ لَضَرَّني عَداوَةُ ذي الأَصحابِ والمُتَوَحِّدِ[3]
ولكنْ نَفَى عنّي الرِّجالَ جَراءتي وصَبْري وإقْدامي عليْهِمْ ومَحْتِدِي[4]

ويفخر بثباته في الحرب يوم الكريهة، محافظة منه على حسن الأحدوثة وكريم الذكر، وأنفة من الدناءة، وإن الفتى المقدام لترتعد فرائصه من هول ذلك اليوم خشية الهلاك[5]:

ويَوْمٍ حَبَسْتُ النَّفْسَ عندَ عِراكِها حِفاظًا على عَوْراتِهِ والتَّهَدُّدِ[6]
على مَوْطِنٍ يَخْشَى الفَتَى عندَهُ الرَّدَى مَتَى تَعْتَرِكْ فيهِ الفَرائِصُ تُرْعَدِ[7]

ويفخر بجرأته وشجاعته في قطع المهامه والقفار الموحشة القديمة التي تعزف فيها الجنّ، قائداً مقداماً لسادة نبلاء[8]:

ورَكُوبٍ تَعْزِفُ الجِنُّ بِهِ قَبْلَ هذا الجيلِ مِنْ عَهْدٍ أَبَدْ[9]

---

(١) كفى العود منه البدء: أي كفتني الضربة الأولى التي بدأت بها أن أعيد ضربة ثانية. والمعضد: الرديء من السيوف.

(٢) معلقته: ٩٦، ٩٧.

(٣) الوغل: الضعيف من الرجال. والمتوحّد: الفرد الذي ليس معه جماعة.

(٤) المحتد: الأصل.

(٥) معلقته: ٩٩، ١٠٠.

(٦) عراكها: أي معالجتها الحرب. عوراته: أي عورات ذلك اليوم كالانهزام ونحوه. والتهدّد: تهدّد الأعداء إياي.

(٧) الفرائص: جمع فريصة، وهي بضعة تلي الجنب عند مرجع الكتف، وهي أول ما يرعد من الإنسان وغيره عند الفزع.

(٨) ديوانه: ١٣٠.

(٩) الركوب: الطريق المذلّل. ومن عهد أبد: أي من عهد الدهر الماضي.

وضِبــابٍ سَفَــرَ المــاءُ بِهــا غَـرِقَتْ أَوْلاجُهـا غيـرَ السُّـدَدْ[1].

فَهْيَ مَــوْتَى لَعِـبَ المـاءُ بِهَـا في غُثاءٍ ساقَـهُ السَّيْـلُ عُـدَدْ[2]

قَــدْ تَبَـطَّنْتُ بِـطِرْفٍ هَيْكَــلٍ غيـرِ مِـرْبـاءٍ ولا جَـأْبٍ مُكَـدْ[3]

قــائِـداً قُــدّامَ حَـيٍّ سَــلَفــوا غيـرِ أنْكاسٍ ولا وُغْـلٍ رُفُـدْ[4]

نُبَــلاءُ السَّعْيِ مِنْ جُـرْثُـومَـةٍ تَتْــرُكُ الـدُّنيـا وتَنْمي لِلْبَعَــدْ[5]

إنها لوحة شاخصة لهذا الطريق المخوف الموحش، بدت فيها الضباب غرقى، أخرجها السيل من جحورها، بعد أن غمرتها المياه، إلا ما ارتفع منها فلم يصبه السيل، فإذا هي ملقاة مع الغثاء المتراكب يحتملها السيل. وفي هذا الإطار الوصفي دخل إلى وصف رحلته، إذ تبطّن هذا الطريق الوعر المجهول، وقد امتطى صهوة جواد كريم ضخم غير متثاقل في مشيه، وكان قائداً أمام سادة كرام أقوياء، نبلاء المسعى، من أصل رفيع ومحتد طيب، يتركون الدنيا وما فيها من رخيص المتاع، ويبنون الأمجاد البعيدة الشريفة.

ويفخر طرفة بصبره على المصائب والأرزاء تحلّ بساحته، فلا يتململ ولا يجأر بالشكوى، بل يخاطب نفسه التي فدحتها المصائب الفوادح مرة بعد مرة قائلاً لها: تحلَّيْ بالصبر فإنك من قوم لا يعرفون التشكّي والجزع[6]:

ذاكَ عَـصْـرٌ، وعَــداني أنَّــني نــابَني العـامَ خُـطوبٌ غيـرُ سِـرّْ

---

(١) سفر الماء بها: أي أخرجها من حجراتها. وأولاجها: مداخلها وحجراتها. والسُّدَد: ما ارتفع من حجراتها فلم يصبه السيل.

(٢) العُدَد: المتراكب.

(٣) الطِّرْف: الفرس الكريم. الهيكل: الطويل. غير مِرْباء: أي ليس به ربو، وهو البُهْر وتواتر النفس والانتفاخ من عدو أو فزع. والجأب: الغليظ. والمكدّ: الثقيل البطيء الذي يكدّ بالسّاق وبالسّوط.

(٤) سلفوا: أي هلكوا ومضوا. والأنكاس: جمع نِكْس، وهو الضعيف من الرجال. والوُغل: الأدعياء. وارفد: جمع رَفود، وهو الكثير الرفد.

(٥) نبلاء السعي: أي لا يسعون إلا في الأمر العظيم. والجرثومة: الأصل. وتنمي للبَعَد: أي تنهض للأمر الشريف.

(٦) ديوانه: ٥٦.

مِنْ أُمـورٍ حَـدَثَتْ أمثـالُهـا   تَبْتَـري عُودَ القَـويِّ المُسْتَمِرْ[1]
وتَشَكّى النَّفْسُ مـا صـابَ بِهـا   فاصْبِري إنّـكِ مِنْ قومٍ صُبُـرْ[2]

وهو، إلى هذه الشجاعة والإقدام والصبر، كريم لا يتوارى إذا طرقه الضيف وابن السبيل[3]:

ولَسْتُ بِمِحْلالِ التِّلاعِ مَخافَةً   ولكنْ مَتَى يَسْتَرفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ[4]

بل إن الإبل لتخشاه، إذ عرفت منه عادة عقرها كلما ألـمّ بساحته ضيف[5]:

وبَرْكٍ هُجودٍ قَدْ أثارَتْ مَخافَتي   نَـوادِيَـهُ أَمْشي بِعَضْبٍ مُجَـرَّدِ[6]
فَمـرَّتْ كَهاةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلالَـةٌ   عَقيلَةُ شَيْـخٍ كالـوَبيلِ يَلَنْـدَدِ[7]
يَقـولُ وقَدْ تَـرَّ الوَظيفُ وسـاقُها   أَلَسْتَ تَرى أَنْ قدْ أَتَيْتَ بِمُؤْيِدِ[8]
وقـالَ ألا مـاذا تَـرَوْنَ لِشـارِبٍ   شَـديـدٍ عليكُمْ بَغْيُـهُ مُتَعَمِّـدِ[9]
فقـالَ ذَروهُ إنّمـا نَفْعُـهـا لَـهُ   وإلاّ تَكُفّوا قاصِيَ البَرْكِ يَزْدَدِ[10]

إنه مشهد من مشاهد الحياة اللاهية العابثة التي كان يحياها طرفة مع اللاّهين من أمثاله، نشهد فيه طرفة السكّير المهاجم إبل شيخ نَكِد من أبناء عمومته، كما في

---

(١) المستمر: الصلب الشديد.
(٢) ما صاب بها: أي ما أصابها ونزل بها.
(٣) معلقته: ٤٤.
(٤) التلاع: مجاري الماء التي تصب في الوادي، وهي تستر من نزل فيها.
(٥) معلقته: ٨٧ ـ ٩١.
(٦) البرك: جماعة الإبل. والهجود: النيام. ومخافتي: أي خوفها إياي. ونواديه: أوائله وما سبق منه. والعضب: السيف القاطع. والمجرّد: المسلول.
(٧) الكهاة: الناقة الضخمة المسنّة. والخيف: جلد الضرع. والجلالة: الجليلة الضخمة. وعقيلة المال: خيره وأفضله. والوبيل: العصا، شبه به الشيخ لهزاله وضمره. واليلندد: الشديد الخصومة.
(٨) ترّ: طنّ وندر لما ضربه بالسيف. والوظيف: ما بين الرسغ والساق. والمؤيد: الداهية.
(٩) ماذا ترون لشارب: أي ماذا ترون في أمره.
(١٠) يزدد: أي إن لم تكفّوا أقصى البرك وتردّوه إلى أوله يزدد في نفاره.

شرح ابن السكيت، شديد الخصومة لطرفة، لكثرة عقره من إبله، لم ينفعه صياحه في وجه طرفة وشكواه من اعتدائه على أنجب نوقه وأسمنها، فصاح بالقوم: دعوه، وكفّوا أقصى البرك الذي نفّره هذا السكّير المسلّح قبل أن يمعن في نفاره. وقد بدا طرفة في هذا المشهد مغامراً جريئاً، شاهراً سيفه يعقر النوق.

ويختصر طرفة تفاصيل تهيئة تلك الناقة السمينة التي عقرها للشواء، وشعل النيران، ويفجؤك بمشهد الشُّرْب السامر اللاهي، وحوله الإماء يشتوون حوار الناقة الغضّ، ويسعين عليه وعلى ضيفانه بقطع اللحم المشوي، معبّراً عن ذلك كله بكلمات قصار، ولمسات توحي بهذه الأعمال[1]:

فَـظَلَّ الإمـاءُ يَمْتَلِلْنَ حُـوارَهـا ... ويُسْعَى عَلَيْنا بالسَّديفِ المُسَرْهَدِ[2]

وهو في الجدّ سيد في حلقة القوم، وفي اللهو ما جن في الحوانيت، يعتل الكؤوس، ويقدّمها لزائريه[3]:

وإنْ تَبْغِني في حَلْقَةِ القَوْمِ تَلْقَني ... وإن تَقْتَنِصْني في الحَوانيتِ تَصْطَدِ[4]

مَتَى تَأْتِني أَصْبَحْكَ كَـأْساً رَوِيَّـةً ... وإن كُنْتَ عَنْها ذا غِنىً فَاغْنَ وازْدَدِ[5]

ونداماه من الطبقة الرفيعة، بيض كالنجوم، أعلام مشاهير. وقَيْنَتُه حسناء مرفّهة، تروح عليهم بثيابها الموشّاة المصبوغة بالزعفران، مكشوفة الصدر، بَضّة المتجرَّد، رفيقة بجسّ الندامى، إذا طلبوا منها الغناء انبرت تغني في عفوية ويسر وبراعة، وهي ترنو إلى الشُّرْب اللاهي بطرفها الفاتر، لا تلقى في غنائها عنتاً ولا رهقاً[6]:

---

(١) معلقته: ٩٢.

(٢) يمتللن حوارها: أي يشتوينه في المِلّة، وهي الرماد الحار والجمر. والحوار: ولد الناقة. والسّديف: شقق السنام. والمسرهد: الحسن الغذاء، السمين.

(٣) معلقته: ٤٥، ٤٦.

(٤) الحوانيت: بيوت الخمّارين.

(٥) أصبحك: أسقيك صبوحاً، وهو شرب الغداة. والرويّة: المروية.

(٦) معلقته: ٤٨، ٤٩، ٥٠.

نَـدامايَ بِيضٌ كـالنُّجومِ ، وقَيْنَـةٌ تَروحُ عَلَيْنا بينَ بُـرْدٍ ومُجْسَدِ[1]
رَحِيبٌ قِطابُ الجَيْبِ مِنْها، رَفِيقَةٌ بِجَسِّ النَّدامَى، بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ[2]
إذا نحنُ قُلْنا أَسْمِعينا انْبَرَتْ لَنا على رِسْلِها، مَطْروفَةٌ لَمْ تَشَدَّدِ[3]

ولقد عكف على معاقرة الخمرة وجني قطوف اللذات، وأنفق في سبيل ذلك كل ما في حوزته من طريف وتالد، حتى ضجّت العشيرة من تبذيره المال وإفراطه في تبديده، فتجافت عنه، واعتزلته كما يعتزل الجمل الأجرب المهنوء بالقطران[4]:

وما زالَ تَشْرابي الخُمـورَ ولَذَّتي وبَيْعي وإنْفاقي طَريفي ومُتْلَدِي[5]
إلى أَنْ تَحـامَتْني العَشِيـرَةُ كُلُّهـا وأُفْـرِدْتُ إفْرادَ البَعيـرِ المُعَبَّـدِ[6]

ويعجب طرفة بخفته وظرفه وذكائه المتوقد، فيقول منتشياً مزهوّاً فخوراً[7]:

أنا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الذي تَعْرِفونَهُ خَشاشٌ كَرَأْسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ[8]

ويتيه بكرم محتده، وطيب أرومته، وشرف بيته، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم، فيتغنى بذلك كله قائلاً[9]:

وإنْ يَلْتَقِ الحَيُّ الجَميعُ تُلاقِني إلى ذِرْوَةِ المَجْدِ الكَريمِ المُصَمَّدِ[10]

---

(١) البرد: ثوب وشي. والمجسد: الثوب المصبوغ بالزعفران المشبع.
(٢) قِطاب الجيب: مجتمعه حيث قُطِب. وصف قطاب جيبها بالسعة ليبدو صدرها. والبضّة: الناعمة. والمتجرَّد: ما سترته الثياب من الجسد.
(٣) المطروفة: الفاترة الطرف. ولم تشدّد: أي لم تجتهد، وإنما أخذت عفوها في الغناء.
(٤) معلقته: ٥١، ٥٢.
(٥) التشراب: الشرب الكثير. والطريف: ما استحدثته من المال. والمتلد: ما كان قديماً عندك.
(٦) المعبّد: المذلّل المطلي بالقَطران.
(٧) معلقته: ٨٢.
(٨) الضرب: الخفيف من الرجال الظريف. والخشاش: الماضي في الأمور الذكيّ. كرأس الحية: أي خفيف الروح. والمتوقد: الكثير الحركة.
(٩) معلقته: ٤٧.
(١٠) المصمَّد. الذي يصمد إليه الناس ويلجؤون في حوائجهم.

ويعتز بشخصيته المتواضعة المحبّبة، الرفيعة العزيزة في آن، فهو معروف لدى الفقراء والمحتاجين، بارز بين الأغنياء المياسير؛ ذلك أنه يتواضع للفقراء ويحسن إليهم، ويخالط الأغنياء وينادمهم[1]:

رَأَيْتُ بَني غَبْـراءَ لا يُنْكِـرونَني ولا أَهْلُ هذاكَ الطِّرافِ المُمَدَّدِ[2]

وتمتلىء نفسه إعجاباً بأفعاله الحميدة، وصفاته الفذّة، واضطلاعه بجلائل الأمور، فيوصي ابنة أخيه أن تنعاه بما هو أهله إن مات، وأن تشق عليه الجيب، ويحذرها أن تسوّي بينه وبين غيره من الرجال[3]:

فـإنْ مُتُّ فَـانْعَيْني بمـا أَنـا أَهْلُهُ وشُقّي عليَّ الجَيْبَ يا ابنةَ مَعْبَدِ[4]
ولا تَجْعليني كامْرِىءٍ ليسَ هَمُّـهُ كَهَمّي ولا يُغني غَنائي ومَشْهَدي[5]

هذا هو فخر طرفة الفردي، دار فيه حول محور ذاته، وأشاد بخلائقه وسجاياه وأفعاله.

ب ـ فخره الجماعي:

أما فخره الجماعي، فقد توارت فيه شخصيته الفردية، وذابت في بوتقة القبيلة، فإذا هو يوقع على قيثارتها ألحان أمجادها ومفاخرها، ويشدو بمآثرها وأيامها، بضمير الجمع (نحن) الذي حلّ محل ضمير المتكلم المفرد في فخره الفردي. وقد أتى في هذا اللون من فخره القبلي برائع القول وبديعه، حتى إن الرافعي جعله شاعر القبيلة الأول في الجاهلية إذ قال: «ليس فيما وقع إلينا من شعر الجاهلية ما ينطق بأن صاحبه شاعر قبيلة بمجموع هذا المعنى غير شعر طرفة، فهو إذا فخر رأيته يتكلم بلسان ملك قد ضمن طاعة قومه واستمسك بميثاقهم»[6].

---

(١) معلقته: ٥٣.

(٢) الغبراء: الأرض، والفقير يُنسَب إليها كأنه لا يملك شيئاً إلا التراب. والطراف: قبة من أدم، ولا تكون إلا للمياسير والأغنياء. والممدّد: الذي مُدّ بالأطناب.

(٣) معلقته: ٩٣، ٩٤.

(٤) شقي عليّ الجيب: يريد الثوب جميعه، لأن الشق من الجيب أمكن.

(٥) الهمّ هنا: ما يهمّ به من الأمور.

(٦) تاريخ آداب العرب ٣/ ٢٢٥

وجماع فخر طرفة بقومه القيم الاجتماعية التي كان يعتز بها العربي في جاهليته، من شجاعة وكرم وحلم وبر ووفاء وسيادة وشرف.

لقد انتشت نفس طرفة بشجاعة قومه، وثملت بحسن بلائهم في الحروب، وانتصاراتهم التي أحرزوها في أيامهم المشهورة في التاريخ. ومن أهمها يوم تحلاق اللّمم الذي يقول فيه[1]:

سائِلوا عَنّا الّذي يَعْرِفُنا ... بِقُوانا يومَ تَحْلاقِ اللِّمَمْ[2]
يَوْمَ تُبْدي البِيضُ عَنْ أَسْوُقِها ... وَتلُفُّ الخَيْلُ أَعْراجَ النَّعَمْ[3]

يصور طرفة في هذه القصيدة مدى اعتزازه بهذا اليوم، يوم تحلاق اللمم، الذي انتصفت فيه بكر من تغلب، وقد أمر قائدُها الحارث بن عبّاد بحلق رؤوسهم، ليكون ذلك علمًا يعرف بعضهم بعضاً. وقد صور طرفة في البيت الثاني الهول الذي شعرت به تغلب، حتى إن نساءها حسرن عن أسوقهنّ مشمرات للهرب، وراحت خيل بكر تستاق إبل تغلب. وقد أبرز طرفة هذا المشهد ببراعة وفي ألفاظ معدودات. فالصورة في المصراع الأول رسمتها عبارة «تبدي البيض عن أسوقها»، وفي المصراع الثاني رسمت الصورة عبارة «تلفّ الخيلُ أعراجَ النعم»، وترك القارئُ يتصور مشهد الفزع في هرب النساء، ومشهد النصر والغنيمة في لفّ الخيل قطعان النعم.

لقد وقف طرفة في علياء رؤيته لمفاخر قومه الحربية يجلّيها، مشقّقاً في تجليتها أطراف القول، منوّعاً أساليب العرض، ملوّناً الصور التي أبرزهم فيها أعزة شجعاناً صبراً عند اللقاء.

إنه ليفخر بشجاعتهم وإقدامهم وصبرهم في مواضع كثيرة من قصائده، ولكنه في كل مرة يعرض لك جانباً من هذه الشجاعة وذاك الإقدام وذلك الصبر، يتمم

---

(١) ديوانه: ١٠٤.
(٢) التحلاق: الحلق. واللّمم: جمع لمّة، وهي الشعر يلمّ بالمنكب.
(٣) البيض: النساء. وتبدي البيض عن أسوقها: يرفعن ذيولهنّ للهرب. والأعراج: جمع عَرْج وهو ما بين الخمسين والمئة إلى المئتين من الإبل. وتلفّ الخيل النعم: أي تجمعها وتسوقها.

الصورة الكبيرة التي انطبعت في مخيلته عن شجاعتهم الفذّة، وإقدامهم النادر، وصبرهم العجيب، في مبالغة جميلة محبّبة.

فقومه شجعان يحمون السَّرْب، واضحي الأوجه، لا تبدو عليهم كآبة الجزع في الحروب، يخوضون غمارها بحسامات رُسَّب تقطع اللحم والعظم، وتبتر المعاصم، وبقنا جرد ملساء، وبخيل ضخمة صلبة نجيبة، منسوبة، سباقة، ضامرة، عاضة على اللجم[1]:

حينَ يَحْمي النّاسُ نَحْمي سَرْبَنا ... واضِحي الأَوْجهِ مَعْروفي الكَرَمْ[2]
بِحُسامـاتٍ تَـراهـا رُسَّبـاً ... في الضَّريباتِ مُتِـرّاتِ العُصُمْ[3]
وفُـحـولٍ هَـيْـكَـلاتٍ وُقُـحٍ ... أَعْـوَجِيّـاتٍ علَى الشَّـأْوأَزُمْ[4]
وقَـنـاجُـرْدٍ وخَـيْـلٍ ضُـمَّـرٍ ... شُزَّبٍ مِنْ طُولِ تَعْلاكِ اللُّجُمْ[5]

وينتشي طرفة بحسن بلاء قومه في الحروب، فيزهو باسمهم منوّهاً بكثرة ضحاياهم بين سنابك الخيل، تعكف على جثثهم الطيور الجارحة[6]:

نَـذَرُ الأَبْـطالَ صَـرْعَى بينَهـا ... تَعْكُفُ العِقْبانُ فيها والرَّخَمْ[7]

وهم لشدة بأسهم لا يثبت أمامهم عدو، إذ يرى بأم عينه الموت الزؤام[8]:

وإذا المُغِيـرَةُ لِلْهِيـاجِ غَـدَتْ ... بِسُعارِ مَوْتٍ ظـاهِرٍ ذُعُـرُهْ[9]

---

(١) ديوانه: ١٠٧.
(٢) السَّرْب: المال الراعي. واضحي الأوجه: أي لا تبدو عليها كآبة الجزع في الحروب.
(٣) الرسّب: التي ترسب في الضريبة، أي تدخل فيها. والمترّات: القاطعات. والعُصُم: المعاصم.
(٤، ٥) تقدم البيتان وشرحهما ص ١١٤.
(٦) ديوانه: ١١٠.
(٧) بينها: أي بين سنابك الخيل.
(٨) ديوانه: ١٢٣.
(٩) المغيرة: الخيل. والهياج: الحرب.

وَلَّــوْا وأَعــطَوْنــا الّــذي سُئِلوا مِنْ بَعْدِ مَوْتٍ ســاقِطٍ أُزُرُهْ[1]
إنّــا لَنَكْسُــوهُمْ وإنْ كَــرِهُــوا ضَــرْباً يَطيـرُ خِـلالَـهُ شَـرَرُهْ[2]

إنه لتصوير رائع لشدّتهم ورهبتهم في قلوب الأعداء، إذ ما تكاد خيلهم تغير بنار الموت المستعر المخيف، حتى يولّـي أعداؤهم الفرار، ويعطوهم ما يطلبون.

وتتجلى روعة الصورة في جعله للموت أُزُراً تسقط، فيتكشّف لأعين أعدائهم مخيفاً فيولون الأدبار، وفي جعله الضرب كسوة للخصوم؛ إذ علوهم به، فحلّ منهم محلّ الكسوة، وأحاط بهم من كل جانب إحاطة الكسوة بالجسم، وإنها لكسوة رهيبة يتطاير منها الشرر.

وقد يتأتّى إلى إبراز شجاعتهم بهذا الاستفهام الموحي بعظمة المستفهم عنه المجهولة للناس، والتعجب من حقيقته الفذّة النادرة[3]:

وهُــمُ مــا هُمْ إذا مــا لَـبِسُــوا نَسْـجَ داوُودَ لِبَأْسٍ مُحْتَضِـرْ[4]
وتَســاقَى الـقَــوْمُ كَــأْســاً مُــرَّةً وعَـلا الخَيْـلَ دِمـاءٌ كـالشَّقِـرْ[5]

وإنه لوصف بديع لاشتعال نار الحرب واحتدام وطيسها، مثّل له بتساقي الأبطال كأس المنون المرّة، وباصطباغ الخيل بالدماء القانية.

ومن صفات قومه العالية التي انتشت نفسه بالفخر بها صبرُهم ووقارهم عند اللقاء، وفي ساعات الشدة والروع، ولذلك نوّع فيها أساليب القول، وعدّد الصور والمشاهد في غير مكان من قصائده.

---

(١) ولَّوْا: أي الأعداء، ولّوا على أعقابهم منهزمين مدحورين. وموت ساقط أزره: أي موت مكشوف للأعين مخيف.
(٢) نكسوهم ضرباً: نعلوهمْ به.
(٣) ديوانه: ٥٨.
(٤) هم ما هم: تفخيم وتعجّب، كأنه قال: أي رجال هم. ونسج داوود: الدروع. والبأس: شدة الأمر. والمحتضِر: المحضور المجتمع إليه.
(٥) الشّقِر: شقائق النعمان.

فهم شجعان كأسد الغاب، إذا أغاثوا رأيتهم أقوياء، وُقُراً عند اللقاء، لا ترتفع أصواتهم باللغط وفضول الكلام[1]:

أُسْدُ غابٍ، فإذا ما فَزِعوا غيرُ أنْكاسٍ ولا هُوجٍ هُذُرْ[2]

وهم راجحو الرأي، وُقُر عند اللقاء بشهادة بكر، يكشفون الأذى والضرّ عن غيرهم، ظاهرون على كل غالب صنديد[3]:

ولَقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أنّنا فاضِلو الرَّأْيِ وفي الرَّوْعِ وُقُرْ[4]
يَكْشِفون الضُّرَّ عنْ ذي ضُرِّهِمْ ويُبِرُّونَ على الآني المُبِرّْ[5]

إنه لإعلان وتأكيد وتقرير لقيم اجتماعية عُرف بها قومُه بنوقيس بن ثعلبة، وعرفتهم بها بكر، فأصبحت خليقة من خلائقهم، وسجيّة من سجاياهم، يتحدث بها الناس، ومنها أنهم وقر عند اللقاء.

ومما قاله في هذا المعنى[6]:

نُمْسِكُ الخَيْلَ على مَكْروهِها حينَ لا يُمْسِكُها إلاّ الصُبُرْ[7]
حينَ نادَى الحَيُّ لمّا فَزِعوا ودَعا الدّاعي وقَدْ لَجَّ الذُّعُرْ[8]

إنهم ليمسكون الخيل على ما تكره من شدّة الحرب، فيحجزونها عن الفرار في ساعات الكرب والشدة، إذ لا يمسكها عن ذلك إلا المغاوير الصُبُر عند اللقاء،

---

(١) ديوانه: ٥٦.
(٢) فزعوا: أغاثوا. والأنكاس: جمع نِكس، وهو الضعيف الدنيّ. والهوج: جمع أهوج، وهو الأحمق. والهُذُر: جمع هَذور، وهو الكثير الكلام.
(٣) ديوانه: ٦١.
(٤) في الروع وقر: لا نخفّ عند الروع، بل نثبت ونتوقّر
(٥) يبرّون على الآني المبرّ: يغلبون ويظهرون. والآني المبر: الغالب.
(٦) ديوانه: ٦٢.
(٧) مكروهها: ما تلقاه من شدّة الحرب.
(٨) لج الذعر: دام واشتدّ.

وذلك حين ترتفع أصوات الحي مستغيثين فزعين، ويدعو الداعي إلى النجدة، وقد لفّ الناس ذعر شديد.

وتمور نفس طرفة الشابّة المتأججة بالحماس، المتعشقة لحديث البطولة والفداء، تمور بالانفعال بهذه المعاني الحماسية، فيصف تدفق قومه إلى الغارة المنصبّة على الأعداء، وصفاً يبرزهم حماة أشداء في ساعات البأس والشدّة، لا يولون الأدبار[1]:

دُلُقٌ في غارَةٍ مَسْفُوحَةٍ ولَدَى البَأْسِ حُماةٌ ما نَفِرّْ[2]

ومن هذا الباب قوله أيضاً في وصف خيل قومه المغيرة على الأعداء[3]:

دُلُقِ الغارَةِ في إفْزاعِهِمْ كَرِعالِ الطَّيْرِ أَسْراباً تَمُرّْ[4]
تَذَرُ الأَبطالَ صَرْعَى بينَها مايَني مِنْهُمْ كَمِيٌّ مُنْعَفِرْ[5]

فالخيل مندلقة في الغارة كأسراب الطير، تمر مسرعة تحمل فرسانها إلى مستغيثيهم. ويختصر المشهد حيث اشتبك الفريقان، واحتدمت المعركة، فإذا نحن أمام أبطال صرعي بين هذه الخيل المندلقة في الغارة، وقد عُفِّرت جباههم بالثرى.

إنها صورة سريعة خاطفة في بيتين، الخيل فيها كسرب من الطائرات مرت كلمح البصر، فإذا ضحاياها من الأبطال صرعى يتخبطون بدمائهم، وما أجمل كلمة (دُلُق) في هذا المقام! وما أشدّ دلالتها على تصوير اندفاع الأبطال أو الخيل إلى الغارة! إنها لتوحي بانصباب جموعهم في الغارة المسفوحة المفتوحة، كأنهم يندلقون في ساحتها اندلاقاً، ويتتابعون إليها تتابعاً سريعاً، لا يكاد يمسكهم عن الاندلاق والاندفاع شيء.

---

(١) ديوانه: ٦٢.
(٢) دلق في غارة: متقدمون فيها مندفعون.
(٣) ديوانه: ٦٦.
(٤) تقدم البيت وشرحه ص ١١٤.
(٥) مايني: ما يزال. والكميّ: الشجاع. والمنعفر: الملتصق بالعفر وهو التراب.

ومن أبياته الجميلة في الفخر، النابضة بعاطفة الاعتزاز بقومه الذّابين عن الحمى قوله[1]:

ونَحْنُ إذا ما الخَيْلُ زايَلَ بينَها ... منَ الطَّعْنِ نَشّاجٌ مُخِلٌّ ومُزْعِفُ[2]
وجالَتْ عَذارَى الحَيِّ شَتَّى كَأَنَّها ... تَوالي صُوارٍ والأَسِنَّةُ تَرْعُفُ[3]
ولَمْ يَحْمِ فَرْجَ الحَيِّ إلّا ابنُ حُرَّةٍ ... وعَمَّ الدُّعاءَ المُرْهَقُ المُتَلَهِّفُ[4]
فَفِئْنا غَداةَ الغِبِّ كُلَّ نَقِيذَةٍ ... ومِنّا الكَمِيُّ الصّابِرُ المُتَعَرِّفُ[5]

إنها من بديع الفخر بالشجاعة والذود عن الحمى في إطار رائع من الوصف الحي، فالخيل فرّق بينها طعن ينشج بالدم، فيهزل الجسم، ويهدّ العافية، ويطفىء شعلة الحياة، ورُوّع سرب العذارى في الحي بين الأسنة تقطر دماً، فرحن مذعورات يجلن هنا وهناك يلوذ بعضهنّ ببعض، كأنهنّ قطيع من حمر الوحش، وتبدّى لكل ذي عينين أنه لن يذبّ عن الحمى المهدد، إلا كميّ أبيّ، وانطلق صوت المكروبين المرهقين المتلهّفين للنجدة، يعمّ بدعائه الناس جميعاً. في مثل هذه الساعة العصيبة يأتي دورنا، فنرد السبايا بكل صنديد شجاع صبور.

هذا هو جانب الشجاعة والبأس، جلاّه طرفة في فخره بقومه، فخلّدهم شجعاناً أعزّة صبراً عند اللقاء.

أما الجانب الثاني الذي أشاد به طرفة من خلائق قومه، فهو الكرم والسخاء.

والكرم هو قسيم الشجاعة في الحياة العربية الجاهلية، القائمة على الغزو والكفاح في فيافٍ وفلوات قاحلة ضنينة بالخيرات. فلا غرو أن يكونا عمادي المجد،

---

(١) ديوانه: ١٢٧.

(٢) زايل: فرّق. والنشّاج: طعن ينشج بالدم، أي يسمع له صوت. والمخلّ: الذي ينزف بالدم فيضعف صاحبه. والمزعف: القاتل.

(٣) التوالي: الأواخر. والصوار: قطيع البقر.

(٤) فرج الحي: موضع المخافة، وهو الثغر. عم الدعاء: أي عم الناس جميعاً ولم يخص رهطه الأدنين.

(٥) فئنا: رددنا ورجعنا. غداة الغبّ: يعني غداة اليوم الذي بعد يوم الحرب. والنقيذة المستنقذة من قوم آخرين. والكمي: الشجاع. والمتعرّف: الذي يسأل عن رئيس الأعداء ليحمل عليه فيقتله.

ودعامتي السيادة والشرف، بهما معاً يمدح المادحون، وبهما معاً يفتخر المفتخرون.

ومن هنا انطلق طرفة يفخر بكرم قومه كما افتخر بشجاعتهم، وجاء فخره بكرمهم وشجاعتهم جنباً إلى جنب.

والكرم أعظم ما يكون في أيام الشدّة والجدب، ومن ثَمَّ تفنّن طرفة في وصف الشدّة وعرض كرم قومه فيها، كما تفنّن في وصف مظاهر الكرم، من موائد سخية تُصَفّ للمعوزين، وإماء تقوم على طهي القدور، وضرب بالقداح على أعضاء الجزور لتوزّع على الفقراء.

فمن فخره بكرمهم قولُه في قومه بني سعد بن مالك بن ضبيعة، الذين يجودون حين يشتد الزمان، وتقسو الحياة، وتهزل الإبل حتى تذوب أسنمتها[1]:

رأَيْتُ سُعـوداً مِنْ شُعوبٍ كَثيـرَةٍ ... فلَمْ تَرَعَيْني مِثْلَ سَعْدِ بنِ مالِكِ[2]
أَبَـرَّ وأَوْفَـى ذِمَّـةً يَعْـقِـدونَهـا ... وخَيْراً إذا ساوَى الذُّرَى بالحَوارِكِ[3]
وأَنْمَى إلى مَجْـدٍ تَلِيـدٍ وسُـورَةٍ ... تَكونُ تُراثـاً عندَ حَيٍّ لِهـالِكِ[4]

ومن هذا الفخر الفاخر ما ارتفع به صوته مجلجلاً، مزهوّاً فخوراً بكرمهم الواسع الشامل وقت الشدّة في بيته الذائع المشهور وما تلاه من أبيات[5]:

نحنُ في المَشْتـاةِ نَدْعـو الجَفَلَى ... لا تَـرَى الآدِبَ فِينـا يَنْتَقِـرْ[6]

---

(١) ديوانه: ٨٣.

(٢) السعود: جمع سعد، وأراد سعد بن مالك بن ضبيعة.

(٣) الذرى: الأسنمة. والحارك: مقدم السنام. وتساويهما يكون عند الهزال.

(٤) أنمى إلى المجد: أشدّ ارتفاعاً وسموّاً إليه. والتليد: القديم. والسورة: المنزلة من الشرف. وعند حي لهالك: أي من هالك.

(٥) ديوانه: ٦٠.

(٦) المشتاة: الشتاء. والجفلى: أن يعمّ بدعوته إلى الطعام ولا يخصّ واحداً دون آخر. والآدب: الداعي إلى المأدبة. وينتقر: أي يدعو النقرى، وهي أن يخصّ بعض الناس بدعوته دون بعض.

حينَ قالَ النّاسُ في مَجْلِسِهِمْ أَقُتارٌ ذاكَ أَمْ ريحُ قُطُرْ[1]
بِجِفانٍ تَعْتَري نادِيَنا مِنْ سَدِيفٍ حينَ هاجَ الصُّنَبِرْ[2]
كالجَوابي لاتَني مُتْرَعَةً لِقِرَى الأَضْيافِ أَو لِلْمُحْتَضِرْ[3]
ثم لا يَخْزُنُ فينا لَحْمُها إِنَّما يَخْزُنُ لَحْمَ المُدَّخِرْ[4]

إنها صورة ماثلة ناطقة بكرمهم الشامل الذي لم يخص الأغنياء ومن يرجون عندهم المنفعة، وإنما هو كرم يعم الناس جميعاً طلباً للمجد واكتساب الحمد. وهو كرم مضاعف، لأنه جاء في وقت الشدة وقرم الناس إلى اللحم، حتى إن رائحة الشواء عند القوم المجهودين الجياع أضحت بمنزلة رائحة العود. وهو كرم غزير، تجلى في الجفان المترعة باللحم، كأنها الحياض العظيمة، لا تني تقدم للضيف الوافد والنازل المقيم، لا يخزن من لحمها شيء فيفسد، بل تملأ كل يوم بذبح طريّ جديد.

ومن فخره الرائع بكرم قومه وقت الشدّة في إطار من الوصف بديع لهذه الشدة التي أطبقت على الإنسان والحيوان في الصحراء القاسية قولُه[5]:

إِنّا إذا ما الغَيْمُ أَمْسَى كأَنَّهُ سَماحِيقُ ثَرْبٍ وَهْيَ حَمْراءُ حَرْجَفُ[6]
وجاءَتْ بِصُرّادٍ كأَنَّ صَقِيعَهُ خِلالَ البُيوتِ والمَنازِلِ كُرْسُفُ[7]

---

(١) القتار: رائحة الشواء. والقطر: العود الذي يتبخّر به. يقول: نحن نطعم في شدة الزمان إذا كان ريح الشواء عند القوم بمنزلة رائحة العود، لما هم فيه من الجهد والحاجة إلى الطعام.

(٢) تعتري: تلمّ نديّاً وتأتيه. والنادي: مجلس القوم. والسديف: قطع السنام. والصنبر: أشدّ ما يكون البرد.

(٣) الجوابي: جمع جابية، وهو الحوض العظيم. والمحتضر: الحاضر مع القوم النازل على مائهم.

(٤) يخزن اللحم: تغيّرت رائحته وفسد.

(٥) ديوانه: ١٢٦.

(٦) السمحيق: شحم دقيق. وثرب الشاة: شحمها. وهي حمراء: أي الريح، لاحمرار السماء. والحرجف: الشديدة الباردة.

(٧) الصّرّاد: سحاب لا ماء فيه. والكرسف: القطن.

وجاء قَرِيعُ الشَّوْلِ يَـرْقُصُ قبلَها | إلى الدِّفْـء، والرّاعي لَها مُتَحرِّفُ[1]
نَـرُدُّ العِشَـارَ المُنْقِيـاتِ بِشَـظِيُّهَـا | إلى الحَيِّ حَتَّى يُمْرِعَ المُتَصَيِّفُ[2]
تَبِيتُ إمـاءُ الحَيِّ تَطْهَى قُـدورَنا | ويَأْوي إلَيْنا الأَشْعَثُ المُتَجرِّفُ[3]

إنها لوحة تمثل الشتاء بسمائه المغبرّة الحمراء الكالحة، ورياحه العاصفة المتربة، وبرده القارس، وجليده المتساقط كأنه القطن، يرقص فيها فحل الإبل مسرعاً، متقدماً الناقة على غير عادته طلباً للدفء، والراعي من شدّة البرد عنها بعيد.

في هذه الشدّة، نرد كرام الإبل من العشار السمان إلى الحيّ، لتذبح وتقدم للعفاة الجياع، ويظل هذا دأبنا حتى ينبت البقل، وتمرع الأرض، وتخصب المصايف.

وتبقى إماء الحي في طهي دائم للقدور، تقدم الطعام للبؤساء الذين يأوون إليهم، حتى تنقشع الشدّة عن العفاة والمحتاجين.

وتتجلّى قيمة هذا الكرم الذي أسبغه طرفة عليه وعلى قومه في ردّهم كرام الإبل من العشار السمان وذبحها، والعشار من الإبل يُضنّ بها، لأنها ستلد بعد قليل، ولكنه الكرم الغزير الجارف الجَوْد يودي بالعشار على قيمتها وغلاء أثمانها.

ومن هذا الضرب من الفخر الذي حرص فيه طرفة على تصوير الشدّة تصويراً بارعاً، وإبرازها قاسية كالحة، تنبع في وسطها نبعة الإحسان والجود قولُه[4]:

---

(١) القريع: الفحل. والشول: جمع شائلة، وهي التي خفّ بطنها وضرعها. والرقص: ضرب من السرعة، أي جاء فحل الإبل قبل الناقة يبادر الدفء وقد كان قبل ذلك خلفها لا يفارقها. والراعي لها متحرّف: أي يمشي بعيداً عنها من شدة البرد.

(٢) العشار: الحوامل من النوق. والمنقيات: ذوات النقي، وهو الشحم والمخّ. والشظيّ: العظام.

(٣) الأشعث: المغبرّ الرأس الزريّ الهيئة. والمتجرِّف: الذي جرفت السنون ماله.

(٤) ديوانه: ١٢١.

إنّي مِنَ القَوْمِ الّذينَ إذا ... أزِمَ الشِّتاءُ ودُوخِلَتْ حُجَرُهْ[1]
يَوْماً ودُونِيَتِ البُيوتُ لَهُ ... فَثَنى قُبَيْلَ رَبيعِهِمْ قِرَرُهْ[2]
رَفَعُوا المَنِيحَ وكانَ رِزْقُهُمُ ... في المُنْقِياتِ يُقيمُهُ يَسَرُهْ[3]
شَرْطاً قَوِيماً ليسَ يَحْبِسُهُ ... لَمّا تَتابَعَ وِجْهَةً عَسَرُهْ[4]

إنه لفخر رائع بكرم قومه في أيام الشدّة، حين يعضّ الشتاء الناس ببرده، ويستكن الناس في حجرات متدانية، بعضها داخل بعض، ويشتد الجدب، وتتوالى موجات القرّ القارصة.

في هذه الشدّة، يضربون على الجزور بِقِدْح المَنيح، وهو القِدْح المشهور بالفوز، ويستهمون على سمان الإبل، لتطعم الفقراء، لا يحبسهم عن وجهتهم هذه عُسْر.

وقد عرض طرفة هذا كله في إطار من الوصف التفصيلي، مشخص لشدة البرد والجدب وحاجة الناس للكرم، وأبرز قومه في ذروة السخاء، والجود، إذ يلعبون الميسر، ويضربون بقِدْح المَنيح بالذات، ورزقهم المنقيات، أي السمان من الإبل، لا يحجبهم عن ذلك عسر، وهذا دليل السيادة والغنى والشرف المتصل الواصب.

ووصف طرفة قومه الكرماء بأنهم أيسار لقمان، أي من أشرف مَنْ لعب الميسر، حين تغلي الشتوة القاسية لحم الجزور، وتجعله نادراً صعب المشترى. وآية كرمهم أنهم يتقامرون على أعضاء الجزور، ويوزعون ما يربحون منها على الفقراء[5]:

---

(١) أزم الشتاء: اشتد برده.

(٢) دونيت البيوت: تدانت وقرب بعضها من بعض ليستكنّوا من شدّة البرد. وثنى قرره: تثنّت عليهم القرر مرة بعد أخرى، وكذلك يكون إذا أجدب الزمان أصابهم البرد مرة بعد مرة.

(٣) المَنيح: قِدْح يمتنح ويستعار لاشتهاره بالفوز. والمنقيات: ذوات النقي، وهو المخ، أراد سمان الإبل. يقيمه: يضرب به. واليسر: الضارب بالقدح.

(٤) تتابع وجهة: أخذ طريقة ووجهة. والعَسَر: العُسْر.

(٥) ديوانه: ٦٧.

وهُـمْ أَيْـسـارُ لُـقْـمـانَ إذا أَغْلَتِ الشَّتْـوَةُ أَبْـداءَ الجُـزُرْ[1]

وهم كرام على المعسر متسامحون، لا يلحون على غارمهم الفقير، بل يُنْظِرون المعسر إلى مَيْسَرة، ويعطي الموسر منهم المعسر[2]:

لا يُـلِحّـونَ عـلى غـارِمِـهِـمْ وعلى الأَيْسارِ تَيْسِيرُ العَسِـرْ[3]

ومن سجاياهم أنهم يزدادون كرماً على ما ينوبهم من عسر، كما تزداد الخيل الجياد جرياً على ما ينوبها من مشقة وتعب، ولا يذرون المخذول إن غاب عنه أقربوه وأنصاره[4]:

نَعْفـو كَمـا تَعْفُـو الجيادُ عَلَى م الْعِلّاتِ والمَخْـذولُ لا نَـذَرُهْ[5]
إنْ غـابَ عَنْـهُ الأَقْـرَبُـون ولَمْ يُصْبَحْ بِـرَيِّقِ مـائِـهِ شَجَـرُهْ[6]

وفي ذلك تصوير لأصالة الكرم وديمومته، وتمثيل للمروءة والغوث والرفد والإنعاش بديع، منتزع من الطبيعة الظمأى دوماً إلى الرفد والريّ والإنعاش.

وكما صور طرفة أصالة الكرم في قومه، كان يحلو له أن يؤكد ذلك بوصف مظاهر الكرم الحي والسخاء الغزير على موائدهم الحافلة بشهي الطعام[7]:

تَلْقَى الْجِفـانَ بِكُـلِّ صـادِقَـةٍ ثُـمَّتْ تُـرَدَّدُ بَـيْنَـهُـمْ حِـيَـرُهْ[8]
وتَـرَى الْجِفـانَ لَـدَى مَجـالِسِنـا مُـتَحَيِّـراتٍ بَـيْنَـهُـمْ سُـؤَرُهْ[9]

---

(١) الأيسار: الذين يضربون بالقداح. وإذا شرف الضاربون قيل: أيسار لقمان، وهو لقمان بن عاد. والجُزُر: جمع جزور. وأبداء الجزر: أشرف أعضائها.

(٢) ديوانه: ٦٧.

(٣) غارمهم: الذي لهم عليه دَيْن. والأيسار: الموسرون وتيسير العسِر: أي يعطي الموسر منا المعسر.

(٤) ديوانه: ١٢٤.

(٥) نعفو: نزيد ونكثر. والعلّات: المشقّة والتعب.

(٦) يصبح: من الصَّبوح، وريّق كل شيء: أوله. وهذا مثل ضربه، والمعنى: لم يوصل ولم ينعش.

(٧) ديوانه: ١٢٢.

(٨) بكل صادقة: أي بلحم كل ناقة صادقة السمن. وثُمَّتْ: ثُمّ. والحِيَر: الوَدَك، وهو دسم اللحم

(٩) متحيّرات بينهم سؤره: أي يتحيرّ بين الأضياف بقايا الجفان.

فَكَأَنَّها عَقْرَى لَدَى قُلُبٍ يَصْفَرُّ مِنْ أَغْرابِها صَقَرُهْ[1]
إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنْ سَيُدْرِكُنا غَيْثٌ يُصيبُ سَوامَنا مَطَرُهْ[2]

فالجفان ممتلئة باللحم السمين المطبق بالشحم والدسم، لا بلحم الإبل العجاف، وتراها في مجالسهم متحيرة بين الأضياف، بما فيها من بقايا الأطعمة التي لا تجد من يأكلها. وتبدو الجفان لضخامتها كأنها الذبائح، والشحم المذاب فيها كأنه بقية ماء مصفرة راكدة حول الحوض. وما أجمل تصويره الثّقةَ بتعاطف الطّبيعة معهم، جزاء وفاقاً على كرمهم المغداق، فلئن كانوا في قحط وجفاف، فهم على ثقة ويقين من أنهم سيخصبون ويصيب المطر سوامهم.

وتحملهم أصالة الكرم على نقل اللحم في الشتاء إلى الضيف والجار، كيلا يبقى في نفوسهم أثر من شهوة اللحم[3]:

نُقَلُ لِلَّحْمِ في مَشْتاتِنا تُحُرَّ لِلنِّيبِ طُرّادُ الْقَرَمْ[4]

ولا يقتصر كرمهم على إطعام الطعام، بَل يتعدّاه إلى جبر المحروب السليب الذي فقد ماله، يلجأ إليهم، فيبنون له بيتاً، ويعطونه سواماً وخدماً، حتى يغدو كأنه واحد منهم[5]:

خَيْرُ حَيٍّ مِنْ مَعَدٍّ عُلِمُوا لِكَفِيٍّ ولِجارٍ وابنِ عَمّْ[6]
يَجْبُرُ المَحْروبُ فينا مالَهُ بِبِناءٍ وسَوامٍ وخَدَمْ[7]

والجانب الثالث الذي أشاد به طرفة من مفاخر قومه، عقولُهم الراجحة،

---

(١) القُلُب: جمع قليب، وهو البئر. والأغراب: جمع غرب، وهو الماء يسيل بين الحوض والبئر. والصقر: جمع صقرة، وهي بقية الماء في الحوض.
(٢) السوام: المال الراعي.
(٣) ديوانه: ١٠٦.
(٤) النّيب: جمع ناب، وهي المسنّة من الإبل. والقرم: شهوة اللحم.
(٥) ديوانه: ١٠٥.
(٦) الكفيّ: المكافىء في النسب.
(٧) المحروب: من سُلِب مالُه. والسوام: الإبل السائمة في المرعى.

وأحلامهم الرزينة، فهم لا يفرحون إذا مسّهم خير، ولا يجزعون إذا أصابهم ضرّ[1]:

إنْ نُصادِفْ مُنْفِساً لا تَلْقَنا فُرُحَ الخَيْرِ ولا نَكْبو لِضُرّْ[2]

ومن خلائقهم الغرّ الحسان الدالة على رجاحة عقولهم: اللّين والصّفح والتسامح والتواضع والبرّ، فهم يأخذون الناس بالعفو، ويغفرون ذنب المسيء، من غير فخر بأنفسهم، ولا تيه ولا إعجاب[3]:

ثم زادُوا أنّهمْ في قَوْمِهِمْ غُفُرٌ ذَنْبَهُمْ غيرُ فُخُرْ[4]

أما مجالسهم فيسودها الوقار، وتعلوها الحرمة، يكفّون فيها الجاهل عن غيّه وجهله، فتراها كالحرم، لا رفث فيها ولا فسوق ولا جدال[5]:

نَزَعُ الجاهِلَ في مَجْلِسِنا فَتَرَى المَجْلِسَ فينا كَالْحَرَمْ[6]

وهم إذ يزعون في مجالسهم ذا الجهل، يقربون السيد الحليم الذي يُصْمَد إليه في الحوائج، ويكبرونه وينصرونه[7]:

يَزَعونَ الجَهْلَ في مَجْلِسِهِمْ وهُمُ أنْصارُ ذي الحِلْمِ الصَّمَدْ[8]

والجانب الرابع الذي أعلى طرفة من ذكره في قومه: سيادتهم وشرفهم وسؤددهم.

فقد جعلهم في الذروة من السيادة والرفعة حين وصف فقيرهم بأنه سمح الخلق، وغنيهم جواد، وأشيبهم سيد، وأمردهم منخرق بالمعروف مغرق فيه[9]:

---

(١) ديوانه: ٥٦.
(٢) المنفس والنفيس: الشيء المتنافس فيه، وأراد به المال والغنى.
(٣) ديوانه: ٥٨.
(٤) ثم زادوا: أي على الخصال الحميدة التي عدّدها.
(٥) ديوانه: ١٠٦.
(٦) نزع الجاهل: نكفّه وننهاه.
(٧) ديوانه: ١٣١.
(٨) الصمد: السيد الذي يصمد الناس إليه في حوائجهم.
(٩) ديوانه: ١٣١.

سُمَحاءُ الفَقْرِ أجْوادُ الغِنَى ... سادَةُ الشِّيبِ مَخارِيقُ المُرُدْ(1)

وصورهم سادة أعزة عريقين في السؤدد والشرف وعلوّ المنزلة وجمال المظهر، تفوح من أردانهم رائحة المسك، ويجرون أزرهم ذوات الأهداب على الأرض(2):

ثُمَّ راحُوا عَبَقُ المِسْكِ بِهِمْ ... يُلْحِفُونَ الأَرْضَ هُدّابَ الأُزُرْ(3)

وَرِثُوا السُّودَدَ عَنْ آبائِهِمْ ... ثُمَّ سادُوا سُودَداً غيرَ زَمِرْ(4)

وتأخذ طرفة نشوة النسب الرفيع الذي تحدّر إليهم من ابني وائل، فيوقّع ألحان الفخر به في اعتداد وزهو وشموخ(5):

وَتَفَرَّعْنا مِنِ ابْنَيْ وائِلٍ ... هامَةَ المَجْدِ وخُرْطُومَ الكَرَمْ(6)

مِنْ بني بَكْرٍ إذا ما نُسِبوا ... وبَني تَغْلِبَ ضَرّابي البُهَمْ(7)

ويذكر من دلائل سيادتهم وعراقة أصلهم وتطلّعهم الدائم للسؤدد، إمساكَهم الخيل في أيام الشدّة مهما كلفهم ذلك من ثمن، إذ لا يمسكها في تلك الأيام وينفق عليها، إلا السيد الشريف الكريم السخي الجواد(8):

نُمْسِكُ الخَيْلَ علَى مكْروهِها ... حينَ لا يُمْسِكُ إلاّ ذو كَرَمْ(9)

لقد شدا طرفة بمآثر قومه، وتغنّى بخلائقه وسجاياه، ونوّه بالقيم الاجتماعية التي تحلّى بها هو وقومه، فرفعتهم إلى أعلى المنازل، وفضلتهم على الناس جميعاً.

---

(1) سمحاء الفقر: أي تسهل أخلاقهم عند الفقر. والمخاريق: الذين يتخرّقون بالمعروف، أي يتّسعون فيه. والمُرْد: جمع أمرد، وهو الذي لم تخرج لحيته.

(2) ديوانه: 59.

(3) عبق المسك بهم: أي رائحة المسك ملازمة لهم. يلحفون الأرض: يجرّون أزرهم على الأرض من الخيلاء ويغطونها بها. والهُدّاب: الهدب.

(4) الزمر: القليل.

(5) ديوانه: 106.

(6) الهامة: الرأس. والخرطوم: الأنف. يريد: أننا حللنا في أعلى الشرف وأرفع المنزلة في الكرم.

(7) البُهَم: جمع بُهْمَة، وهو الشجاع الذي لا يُدْرَى كيف يُؤتَى له.

(8) ديوانه: 110.

(9) على مكروهها: أي على ما يُكرَه من ارتباطها لشدّة الزمان وصعوبته.

وقد عرض هذا كله بأسلوب حار، يشي بحرارة عاطفته وشدّة انفعاله بما يقول. فقد كان ثملاً بنشوة المفاخر التي يوقع ألحانها ويتغنى بها، ومن ثم كان يقدّ ألفاظه من معين شعوره المتقد، ويغمسها بحوضه النفسي المتأجج بالانفعال الصادق، فتأتي ألفاظه كريمة فصيحة جزلة فخمة، تحكي ما اعتلج في نفسه من مشاعر الاعتزاز والزهو والافتخار، وتأتلف في حميّا عاطفته المتقدة في جمل حسنة السبك، بديعة النسج، محكمة التأليف، لا تشكو قلقاً ولا نبوّاً ولا معاظلة.

والتمعت في هذا الفخر صور متألقة بديعة، انبثقت من شاعرية طرفة الثرّة، أبرزت المآثر ولونتها، وزادت معانيها سموّاً ووضوحاً وجمالاً وقوة، وألبستها ثوباً فضفاضاً من المبالغة، نسجها خيال شاعر حدث مختال فخور.

٤

الهجاء

ضرب طرفة في الهجاء بالسهم الصائب، ورجم فيه بالشهاب الثاقب، فكان واحداً من أولئك الشعراء الذين وضعوا من قدر مَنْ هَجَوْه، كما يقول أبو عبيدة[١]. وساعده على النبوغ فيه عوامل خارجية، وعوامل داخلية.

أما العوامل الخارجية، فهي الظروف الصعبة التي واجهها طرفة في حياته، من جور أعمامه الذين عَدَوْا على ماله ومالِ أمه، ولم يحسنوا كفالته، ومن تعرضه للوقوف بباب عمرو بن هند وأخيه قابوس، وقْفَة المتعرض للفضل، المستجدي للمعروف، وخيبة أمله في هذين الرجلين، وفي صهره عبد عمرو بن بشر، إذ أفشى سرّه، وأوقعه مع الملك عمرو بن هند في حرج كبير. يضاف إلى هذا ما كان بين حيّي ابن وائل، بكر وتغلب، من تنافس، يذكي أواره إحن وأحقاد، تجمعت عبر السنين في حرب البسوس التي أكلت أخضر القبيلتين ويابسهما.

وأما العوامل الداخلية، فتتجلّى في الاستعداد النفسي في شخصية طرفة التي نشأت على الاعتداد بشرف المحتد، والجرأة على قومه وغيرهم إذا ما عارضوا له رغبة، والتهكّم على مخالفيه في الرأي والمذهب، إلى جانب ما حباه الله من حدّة ذهن، وسلاطة لسان، واستعداد فطريّ للهجاء، يتمثل في حادثة «استنوق الجمل»

---

(١) انظر البيان والتبيين ٤/٨٣.

المشهورة في معظم كتب الأدب[1]، يضاف إلى هذا كله سَوْرة الشباب ونزقه واندفاعه، وسرعة انفعاله وتميّزه من الغيظ حين يرى الرياح تجري بما لا تهوى نفسه، وثقته بنفاذ هجائه، وقدرته على تأديب المعترضين سبيله، المتصدّين للكيد له. وكان يرى أن خيرَ ما يصدّ عن المرء خيلاءُ المتكبر المعترض فيما لا يعنيه ضربةُ سيف، تكشف اللحم عن العظم، أو قولةٌ جارحة من لسان بليغ نافذ، وإن جرح اللسان بالبيان الأصيل لمن أوسع الجراح[2]

وتَصُدُّ عَنْكَ مَخِيلَةَ الرَّجُلِ الـ ـعِرّيضِ مُوضِحَةٌ عَنِ العَظْمِ[3]
بِحُسامِ سَيْفِكَ أوْ لِسَانِكَ وَالـ ـكَلِمُ الأَصِيلُ كَأَرْغَبِ الكَلْمِ[4]

كل هذه العوامل والظروف دفعت بطرفة إلى حلبة الهجاء، فسدّد سهامه إلى المعتدين عليه أو على قبيلته.

هجا عمرو بن هند وأخاه قابوساً، وبني المنذر، وصهره عبد عمرو بن بشر، وحنانة الحاجب، وقبيلة تغلب. وأفرد لهجاء هؤلاء ثماني قصائد من حر شعره ومتخيّره، لما تميّز به من صدق في اللهجة، وبراعة في التصوير، وعفوية في التعبير.

أ ـ هجاء عمرو بن هند:

تأججت نفس طرفة غيظاً من عمرو بن هند وأخيه قابوس، حينما دفعته الظروف القاسية الصعبة للوقوف ببابهما، متعرضاً لفضلهما، فإذا هما لا يأبهان له، ولا يلتفتان إلى عبقريته الشعرية المتفتّحة.

وعزيز على العبقري النابغة جدّ عزيز، أن يبذل نفسه وعبقريته ونبوغه، فلا يجد من يصغي إليه أو يأبه له، فكيف إذا عانى ذلك من رجلين، استهواهما الصيد، فخصّصا له نصف عمرهما؛ إذ كانا يركبان يوماً للصيد، ويجلسان لاستقبال الناس

---

(١) انظر ص ٤٤.
(٢) ديوانه: ٩١.
(٣) المخيلة: الخيلاء والتكبر. والعِرّيض: المعترض فيما لا يعنيه. والموضحة: شجّة تبدي عن وضح العظم، أي بياضه.
(٤) أرغب: أوسع. والكَلْم: الجرح.

يوماً، غير آبهَيْن لوقوف الناس ببابهما، مستخفَّيْن بكرامات الناس وأقدارهم؟

ويبدو أن طرفة ضاق ذرعاً بهذه الوقْفَة الذليلة ببابهما، وحزّ في نفسه أن يضطر لاستجداء هذين الرجلين المنصرفين عن رعاية مصالح الناس، اللاهِيَيْن عن رعيتهما برحلات الصيد ومجالس اللهو والشراب، فراح يسخر منهما، متمنياً أن يكون لدى هؤلاء الناس مكان الملك عمرو بن هند نعجة مرضعة خوّارة، قليلة الصوف، غزيرة اللبن، كثيرة الأولاد، ألوف للذكور، لا تنفر منهم كما ينفر هذا الملك الأحمق من الناس[1]:

فَلَيْتَ لنا مَكانَ المَلْكِ عَمْرٍو ... رَغوثاً حَوْلَ قُبَّتِنا تَخورُ

مِنَ الزُّمِراتِ أَسْبَلَ قادِماها ... وضَرَّتُها مُرَكَّنَةٌ دَرُورُ

يُشارِكُنا لَنا رَخِلانِ فيها ... وتَعْلوها الكِباشُ فَما تَنُورُ

ثم يلتفت إلى أخيه قابوس، فيرميه بالحماقة والطيش[2]:

لَعَمْرُكَ إنَّ قابوسَ بنَ هِنْدٍ ... لَيَخْلِطُ مُلْكَهُ نُوكٌ كَثيرُ[3]

ويعود بعد ذلك إلى عمرو بن هند، فيجبهه بجوره وتقسيمه الأخرق للزمان، يوم للصيد، ويوم لوقوف الناس أذلاء ببابه[4]:

قَسَمْتَ الدهرَ في زَمَنٍ رَخِيٍّ ... كذاكَ الحُكْمُ يَقْصِدُ أو يَجورُ[5]

لَنا يَوْمٌ ولِلْكِرْوانِ يَوْمٌ ... تَطِيرُ البائِساتُ ولا نَطيرُ[6]

فأمّا يَوْمُهُنَّ فيومُ نَحْسٍ ... تُطارِدُهُنَّ بالحَدَبِ الصُّقورُ[7]

---

(١) ديوانه: ٩٦. وقد تقدمت الأبيات وشرحها ص ٣١

(٢) ديوانه: ٩٧.

(٣) تقدم البيت وشرحه ص ٣١.

(٤) ديوانه: ٩٧، ٩٨.

(٥) تقدم البيت وشرحه ص ٣٢.

(٦) تقدم البيت وشرحه ص ٣٢.

(٧) تقدم البيت وشرحه ص ٣٢

وأمّـا يَـوْمُـنـا فَـنَـظَلُّ رَكْـبـاً وُقـوفـاً مـا نَحُـلُّ ومـا نَسِيرُ[1]

فيوم الكروان يوم نحس كله، إذ تطاردها الصقور وتصيدهنّ، وأما يومنا فيوم بؤس أيضاً، إذ نبقى واقفين ببابك أذلة صاغرين، فلا يؤذن لنا فنحلّ عندك، ولا يؤمر لنا بالرجوع فنرحل عنك.

ولا يخفى ما في هذا الهجاء من قسوة ومجابهة، إذ جعل أيام الملك عمرو بن هند شراً كلها على الإنسان والحيوان، وعرّاه هو وأخاه قابوساً من فضيلتي العقل والعدل، وسخر من عمرو سخرية أليمة حين تمنى أن يكون مكانه نعجة خوّارة مرضعة، وأطال في وصفها إطالة تدل على قصد السخرية منه. ولا ريب أن مثل هذا الهجاء القاسي لملك جبار عات لُقّب بمضرّط الحجارة، يدلّ على اندفاع طرفة في فورة شبابه إلى مواقف لم يقدر عواقبها، ولم يقدر مسؤولية الكلمة فيها؛ ذلك أن مثل هذا الهجاء، وإن اتخذ اللون الشخصي الساخر، هو في حقيقته هجاء سياسي، أصاب العرش المنذري في الصميم، وكان له أبعد الأثر في قصف قناة طرفة، وهو في ميعة الصبا وريعان الشباب.

وروى ابن السكيت لطرفة أبياتاً أخرى في هجاء عمرو بن هند، هي من أشدّ الهجاء وأمرّه وأوجعه[2]:

أبا الجُرَيِّ متَى تَرْجو تَدينُ لكمْ يا بنَ الشَّدِيخِ ضِباعٌ بينَ أَجْباخِ[3]
أنتَ ابنُ هندٍ فَأَخْبِرْ مَنْ أبوكَ إذاً؟ لا يُصْلحُ المُلْكَ إلاّ كلُّ بَذّاخِ[4]
إنْ قلتَ نَصْرٌ، فنَصْرٌ كان شَرَّ فَتىً قدْماً وأبيضَهم سِرْبالَ طَبّاخِ[5]

---

(١) تقدم البيت وشرحه ص ٣٢.

(٢) ديوانه بشرح ابن السكيت: ١٥.

(٣) الجريّ: مصغر جرو، وهو ابن الكلب. والشّديخ: المشدوخ، وهو المكسور. وأراد مكسور الرأس، كناية عن الذل. والأجباخ: أمكنة فيها نخيل.

(٤) بذّاخ: باذخ عال شريف.

(٥) نصر: هو نصر بن ربيعة، أحد أجداد عمرو بن هند.

ما في المَعالي لكمْ ظِلٌّ ولا وَرَقٌ وفي المَخازي لكمْ أَسْناخُ أَسْناخِ [1]
إنْ قُسِّمَ المَجْدُ أكْدَى في سَراتِكُمُ أو قُسِّم اللُّؤْمُ فُضِّلْتُمْ بأَشْياخِ [2]

ينصبّ طرفة على عمرو بن هند في صدر البيت الأول بهذا النداء الموجع: «أبا الجريّ» معيّراً شاتماً، ثم لا يلبث أن يتناوله في عجزه بنداء ثان، فيه من الإهانة والحط من القدر ما فيه: «يا بن الشديخ»، كأنه موسوم بالذل والمهانة وسمًا لا فكاك له منه.

ثم يطعن في نسبه، ويتخذ من نسبته لأمه هند مطعناً في شرعية أبيه، فيسأله: من أبوك إذاً؟ ثم ينال من قدرته على الملك وإصلاحه إياه.

ويعيره بأحد أجداده، نصر بن ربيعة، بأنه كان شرفتى، بخلاً وشحّاً، ويعبر عن ذلك بكناية جميلة: كان أبيضهم سربال طبّاخ.

ويجرد آل المنذر من المعالي والمكرمات، ويجعلهم أصلاء في المخازي والعيوب، إن قُسِّم المجد فلا نصيب لسادتهم فيه، وإن قُسِّم اللؤم فلهم منه الحظ الأوفر، ولأشياخهم فضل السبق فيه.

إنه لهجاء موجع، يجرد عمرو بن عند من القيم الاجتماعية التي يعتز بها العربي، وينبع من نفس مهتاجة غضوب، تأججت نيران الحقد والبغض في حناياها، فراح يحصبه بقوارص القول ولواذع الكَلِم، معتمداً على المفارقات بين المعالي والمخازي، والمجد واللؤم، يضع آل المنذر في الطرف المخزي، وغيرهم في الطرف المشرّف.

ويمتاز هذا الهجاء بالصدق الشعوري، نراه في كل بيت، فبريق الشعور بالتشفّي والانتقام والكراهية يلتمع في كل لفظ، والنبض العاطفي المتأجج يواكب الأبيات من المطلع حتى الختام.

ويمتاز أيضاً بألفاظه العنيفة المصوّرة، قدّها طرفة من معين انفعاله، فجاءت

---

(١) أسناخ: جمع سِنْخ، وهو الأصل.
(٢) أكدى: انقطع. والسراة: السادة.

مصورة خصمه في أحط صوره وأدنى منزلة: أبا الجريّ، يا بن الشديخ، من أبوك إذاً؟... وكلها ألفاظ يوحي جرسها بدلالتها على الضعة والذلة والهوان.

وتزداد حميا انفعاله تأججاً حينما يصب جام غضبه على المهجو ويذكر مخازيه، وما تكراره كلمة أسناخ أسناخ إلا صدى لما يمور في صدره من حميا الغضب، قذف به دامغاً آل المنذر بالخزي والعار، وما إكثاره من حرف الخاء أيضاً في هذه الأبيات واتخاذه روياً لها إلا ضرب من التعبير اللاشعوري عما تموج به نفسه من انفعالات الألم والغضب من آل المنذر.

وأحسب أننا لسنا بحاجة إلى التأكيد بأن هذه المقطوعة التي عرّت عمرو بن هند من الفضائل، وغمزته بنسبه، وسخرت منه، إن كانت قد بلغت مسامع عمرو ابن هند، فإنها تكفي وحدها لتفسير اضطغانه على طرفة، وكيده له، وتربّصه الدوائر به.

ب ـ هجاء بني المنذر:

هجا طرفة بني المنذر قاطبة، هجاء سياسياً في دوافعه ومراميه، اجتماعياً شخصياً في شكله ومحتواه، فقال:(1)

مِنَ الشَّرِّ والتَّبْرِيحِ أَولادُ مَعْشَرٍ ... كثيرٌ ولا يُعْطُونَ في حادِثٍ بَكْرا(2)
هُمُ حَرْمَلٌ أَعْيَا على كُلِّ آكِلٍ ... مُبيراً ولَوْ أَمْسَى سَوَامُهُمُ دَثْرا(3)
جَمادٌ بِها البَسْبَاسُ تُرْهِصُ مُعْزُها ... بَنَاتِ اللَّبونِ والسَّلاقِمَةَ الحُمْرا(4)
فما ذَنْبُنَا في أَنْ أَداءَتْ خُصَاكُمُ ... وأَنْ كُنْتُمُ في قَوْمِكُمْ مَعْشَراً أُدْرا(5)

---

(1) ديوانه بشرح الأعلم: ١١١.

(2) التبريح: الجهد والمشقة. والبكر: الفتيّ من الإبل.

(3) الحرمل: نبت لا يقدر الأكل عليه. ومبيراً: مهلكاً. والسوام: المال الراعي والدثر: الكثير الذي لا يحصى كثرة.

(4) الجماد: الأرض لا نبات فيها. والبسباس: نبت أكثر ما يكون في وعر الأرض. ترهص: تصيب وتبري. والمُعْز: جمع أمعز ومعزاء، وهي الأرض الصلبة فيها حصى. والسلاقمة: العظام من الإبل.

(5) أداءت: صارت ذاداء. والأُدْر: جمع أأدر (آدر)، وهو المصاب بانتفاخ في الخصية.

إذا جَلَسُوا خَيَّلْتَ تحتَ ثِيابِهِمْ خَرانِقَ تُوفي بالضَّغِيبِ لَها نَذْرا[1]
أَبَ كَرِبٍ أَبْلِغْ لَدَيْكَ رِسالَةً أَبا جابِرٍ عَنِّي ولا تَدَعَنْ عَمْرا[2]
هُمُ سَوَّدُوا رَهْواً تَزَوَّدَ في اسْتِهِ مِنَ الْمَاءِ خالَ الطَّيْرَ وارِدَةً عَشْرا[3]

يصف بني المنذر بأنهم شر محض، ومشقّة كبيرة، لأنهم بخلاء، لا يعطون في الشدائد بكراً صغيراً من الإبل، وهم كالنبت المرّ المهلك، لا نفع فيهم، بل فيهم الهلاك والدمار للناس؛ فهم أشحّاء ممسكون، ولو ملكوا من المال ما لا يحصى.

ويعود فيشبههم بالأرض الصلبة القاسية الجدبة، لا نبات فيها سوى البسباس الخشن، تبري بحصاها الغليظة أخفاف بنات اللبون والعظام من الإبل، فليس فيهم إلا الأذى المحض.

ثم يسخر منهم، فيصورهم مرضى، قد انتفخت خصاهم، وكأن مرضهم أبعدهم من مخالطة الناس وإكرامهم. ويمضي في رسم الصورة الساخرة المزرية المضحكة حين جلوسهم، فيقول: إذا جلسوا سمعتَ صوت خصاهم، فحسبت تحت ثيابهم أرانب صغيرة، أوجبت على نفسها نذراً أن تضغب، فهي توفي بنذرها، وهي صورة سمعية ساخرة رائعة، تتمم الصورة البصرية لانتفاخ خصاهم، وتجعلهم مُثْلَةً مَعيبة مقزّزة منفّرة.

ويختم هذا الهجاء المؤلم بنداء مجلجل، يهتف فيه بأبي كرب أن يبلغ رسالته بعض بني المنذر. ونصيخ بسمعنا لسماع فحوى هذه الرسالة، فإذا هي سخرية لاذعة بهم جميعاً؛ فهم سوّدوا عليهم ملكاً أحمق غبيّاً. ويمثل حماقته في صورة مضحكة موجعة، إذ يشبهه بطير الرهو الأحمق، الذي حسب أن الطير لا ترد الماء إلا بعد عشرة أيام، فتزوّد بالماء في استه خوف العطش. ولا يخفى ما

(١) الخرانق: أولاد الأرانب. والضغيب: صوت الأرنب.
(٢) ينادي بعض بني المنذر.
(٣) الرهو: طائر أصغر من الكركيّ معروف بالغباء. شبه مَنْ سوّدوه به.

في هذه الصورة من غمز معيب؛ إذ جعل است المهجو ممتلئاً بالماء، علاوة على ما فيها من دلالة على حمقه وضحالة تفكيره.

وواضح أن طرفة حين أراد أن يصور شحّهم وإمساكهم عن المعروف أبرزهم في صورة طبيعية استمدّها من بيئته، فشبههم بالنبت المرّ، والأرض الحزن الجدب، ولما انتقل إلى السخرية منهم أبرزهم في صورة (كاريكاتورية) مضحكة، وفي ذلك آية بيّنة على موهبة طرفة الفائقة في التصوير.

ج ـ هجاء عبد عمرو بن بشر:

هجا طرفة ابن عمه وزوج أخته عبد عمرو بن بشر في قصيدتين، سخر في الأولى منه، لخلاف نشب بينهما، أدى فيما يبدو إلى ظلم عبد عمرو بن بشر طرفةَ ظلمًا فاق الحدّ، وكانت أخت طرفة شكت إليه شيئاً من أمر زوجها عبد عمرو بن بشر، فأحفظته عليه، ويبدو أن عبد عمرو بن بشر لم يكن بَرّاً بأقاربه وذوي رحمه، على ما كان له من حظوة لدى الملك عمرو بن هند، وقدرة على منفعتهم. وقد تجمعت هذه الأسباب في نفس طرفة، ففاضت بهجائه هجاء شخصياً ساخراً موجعاً:[1]

يـا عَجَبا مِنْ عَبْـدِ عَمْرٍو وبَغْيِـهِ ... لقَدْ رامَ ظُلْمي عَبْدُ عَمْرٍو فأَنْعَما[2]

ولا خَيْـرَ فيه، غيـرَ أنَّ لَهُ غِنىً ... وأَنَّ لَهُ كَشْحاً إذا قامَ أَهْضَما[3]

يَـظَلُّ نِساءُ الحَيِّ يَعْكُفْنَ حـولَهُ ... يَقُلْنَ: عَسِيبٌ مِنْ سَرارَةِ مَلْهَما[4]

لَـهُ شَـرْبتـانِ بِـالنَّهـارِ وأَرْبَـعٌ ... مِنَ اللَّيلِ حَتّى آضَ سُخْداً مُوَرَّما[5]

ويَشْرَبُ حتّى يَغْمُرَ المَحْضُ قَلْبَهُ ... وإنْ أُعطَهُ أَتْرُكْ لِقَلْبِيَ مَجْثِما[6]

---

(١) ديوانه بشرح الأعلم: ٩٤.

(٢) أنعم: بالغ.

(٣) الكشح: الخصر. والأهضم: الضامر.

(٤) العسيب: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يُكشَط خوصها. وسرارة كل شيء: وسطه وأفضله. وملهم: موضع باليمامة كثير النخل.

(٥) السخد: ماء الرحم الذي يخرج مع الولد. شبه جسده في نعمته وترجرجه به.

(٦) المحض: اللبن الخالص. ومجثم: موضع.

كَأَنَّ السِّلاحَ فوقَ شُعْبَةِ بانَةٍ تَرَى نُفَخاً وَرْدَ الأَسِرَّةِ أَسْحَما[1]

يتعجب طرفة من بغي ابن عمه وظلمه الذي جاوز الحدّ، وهو الذي يرى ظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند، فلا يجد شفاء لنفسه الغضبى المتألمة إلا بالسخرية منه سخرية لاذعة، بجَعْلِه مبرَّأً من صفات الرجولة وخصالها الحميدة، بأسلوب الذم بما يشبه المدح، فبعد أن جرّده من الخير، عاد فأثبت له الغنى، وكأنه يوحي بهذا السؤال: ما جدوى الغنى في رجل لا خير فيه؟.

ثم وصفه بأنه ذو كشح أهضم ضامر. والمعروف أن عبد عمرو كان بادناً سميناً، على سبيل التهكم والسخرية، ثم راح يصور إلف النساء له، واحاطتهن به، قائلات: هو كعسيب ملهم المفضّل، وكأنه يريد أن يثبت له أنه قعيد نساء، لا يصلح لمهمات الأمور، وأنه شرب حتى انتفخ، وكثر لحمه، وصار يشبه ماء الرحم الثخين في ترجرجه وليونته، وبذلك أبرزه ضخمًا منتفخاً مترجرج الجسم.

وصوّره محبّاً للّبن، يقبل على شربه بشره، فيفقد وعيه عند الشرب، فيشرب شرب الهيم، حتّى يغمر اللبن قلبه، فلا يدع له موضعاً يجثم فيه.

ويمضي في سخريته به، فيصفه بالنعومة والليونة، حتى إن السلاح ليبدو على جسمه كأنه معلق فوق غصن بان ليّن رخو، وترى في جسمه انتفاخات من الشحم ورهل من اللحم، وقد علت طرائق بطنه حمرة مشوبة بسمرة.

إن أبرز ما يميز هذا الهجاء أنه هجاء ذاتي، يتناول أعضاء في جسم المهجو، فيضخم عيوبها على طريقة الهجاء (الكاريكاتوري) بمفهومه الحديث، وليس كهجاء الجاهليين الذي درجوا فيه على سلب المهجو الفضائل الاجتماعية، وإلصاق المثالب فيه، كحطّة النسب، والقعود عن المكارم، والبخل والجبن، وما إلى ذلك من القيم الاجتماعية السائدة في العصر الجاهلي.

وإذا ذكرنا أن هذا النمط من الهجاء لم تكتمل له أسباب النضج الفني إلا في

---

(١) شعبة بانة: غصن بانة، والبانة شجرة ضعيفة ليّنة، فشبّه جسمه في لينه ورخاوته بها. وورد: أحمر. والأسرّة: طرائق البطن. والأسحم: الأسود إلى الصفرة.

العصر العباسي، وعلى يد ابن الرومي بالذات، أدركنا سبق طرفة المبكر في هذا الفن من القول.

أما قصيدته الثانية في هجاء عبد عمرو بن بشر، فقد عكس فيها ما اعتلج في أعماق نفسه من ألم ومرارة وغضب من ابن عمه عبد عمرو، لإفشائه سرّ هجائه لعمرو بن هند. فقد كان هجاء طرفة لعمرو بن هند مطوياً، لا يعلم به أحد من رجال القصر المنذري سوى عبد عمرو بن بشر، وما كان ليبلغه هذا الهجاء لو لم يتطوع عبد عمرو بن بشر بإبلاغه إياه، فكان ذلك سبباً في اضطغان عمرو بن هند على طرفة.

لقد حزّ في نفس طرفة أن يؤتى من وشاية خرقاء، لم يستطع ابن عمه الثرثار أن يمسك لسانه عليها، ويبدو أن عبد عمرو كان نمّاماً واشياً بطبعه، وكثيراً ما كان سعيه في الوشاية والنميمة يوقع بين أبناء القبيلة، ويعرض وشائج الرحم للتقطيع، ولا يبعد أن تكون وشايته بطرفة انتقاماً منه، لما قاله فيه من هجاء.

كل هذا أفعم نفس طرفة بالغيظ والحنق والحزن، وجعلها تفيض بهذه الأبيات[1]:

ألا أَبْلِغا عَبْدَ الضَّلالِ رِسالَةً ... وقَدْ يُبْلِغُ الأَنباءَ عَنْكَ رَسولُ[2]

دَبَبْتَ بسِرّي بَعْدَ ما قَد عَلِمْتَهُ ... وأنتَ بأَسْرارِ الكِرامِ نَسولُ[3]

وكَيْفَ تَضِلُّ القَصْدَ، والحَقُّ واضِحٌ ... ولِلْحَقِّ بينَ الصّالِحينَ سَبيلُ؟

وفَرَّقَ عَنْ بَيْتَيْكَ سَعْدَ بنَ مالِكٍ ... وعَوْفاً وعَمْراً ما تَشِي وتَقولُ[4]

فَأَنْتَ على الأَدْنَى شَمالٌ عَرِيَّةٌ ... شَآمِيَّةٌ، تَزْوي الوُجوهَ بَلِيلُ[5]

---

(١) ديوانه بشرح الأعلم: ٧٧.

(٢) عبد الضلال: يعني عبد عمرو بن بشر، نسبه إلى الضلال، لأنه وشى به إلى عمرو بن هند.

(٣) دببت بسرّي: مشيت به إلى الملك. والنسول: السريع المشي.

(٤) سعد بن مالك وعوف وعمرو: من بني قيس بن ثعلبة. ومنهم عبد عمرو وطرفة.

(٥) على الأدنى: أي على الأقارب. شمال عريّة: يقال للشمال عريّة إذا كانت في غير شمس، كأنها لشدة بردها تعرى من الشمس، فإذا عصفت في مطر فهي بليل. وتزوي الوجوه: تقبضها بشدّة بردها.

وأنْتَ على الأَقْصَى صَباً غيرُ قَرَّةٍ تَـذاءبُ مِنْهـا مُـرْزِغٌ ومُسِيـلُ[1]
فَـأَصْبَحْتَ فَقْعـاً نـابِتـاً بِقَـرارَةٍ تَصَـوَّحُ عَنْهُ، والـذَّليـلُ ذَليـلُ[2]
وأَعْلَمُ عِلْمـاً ليسَ بـالـظَّنِّ أَنَّـهُ إذا ذَلَّ مَوْلَى المَرْءِ فَهْوَ ذَليلُ[3]
وإنَّ لِسانَ المَرْءِ مـا لَمْ تَكُنْ لَهُ حَصـاةً على عَـوْراتِـهِ لَـدَلِيـلُ[4]
وإنَّ أمْرَأً لَمْ يَعْفُ يَوْمـاً فُكاهَـةً لِمَنْ لَمْ يُرِدْ سُوءاً بِها لَجَهُولُ[5]

يستهل طرفة حملته على ابن عمه بهذا التنبيه الجاهر المدوّي: ألا أبلغا عبد الضلال رسالة، ولنا أن نتمثل شحنة الغضب التي كانت تمور بها نفس طرفة، حين ألقى بهذه العبارات الحارة المتفجرة كالقذائف، مضيفاً فيها عبد عمرو إلى الضلال.

وينكشف لنا فحوى الرسالة ومضمونها، فإذا هو إفشاء السرّ الذي آلم طرفة كل الإيلام، فجعله يوجه إلى عبد عمرو هذا القول الموجع: «وأنت بأسرار الكرام نسول»، سريع المشي بالفتنة والنميمة.

ثم يسأله مستنكراً: كيف تضل عن القصد والصواب، والحق واضح بيّن، وسبيله مسلوكة من الصالحين؟ وفي ذلك وصم له بأنه ليس من الصالحين الأمناء الأوفياء.

ويعود فيؤكد أصالة هذه السجية القبيحة فيه، وهي السعي في الوشاية والنميمة، حتى سبّب وشيه وسعيه بالنمائم التفرقة بين أبناء العمومة.

ثم يضرب له مثلاً في شدته على الأقارب وسوء معاملته إياهم، فيشبهه بريح

---

(١) الأقصى: البعيد النسب. صبا غير قرّه: أي ريح لطيفة ليّنة غير باردة. وتذاءب: تجيء من ها هنا مرة ومن ها هنا مرة كالذئب. والمرزغ: القليل من المطر. والمسيل: المطر الغزير الذي تسيل الأرض منه.

(٢) الفقع: الكمء الأبيض يطلع من الأرض، يضرب مثلاً للذليل. والقرارة: المطمئن من الأرض. وتصوّح: تشقّق.

(٣) المولى: ابن العمّ.

(٤) الحصاة: العقل.

(٥) فكاهة: مزاحاً.

الشمال الباردة القاسية، عريت من الشمس، وعصفت في مطر، فهي بليل شديدة البرودة، تقبض الوجوه وتلسع الجلود.

وعلى النقيض من ذلك، أنت مع الأقصى من الناس كريح الصبا اللينة اللطيفة الرخيّة المنعشة، تهب من هنا مرة، ومن هناك أخرى، فتأتي بالخير العميم.

إنها صورتان طبيعيتان لخلق هذا الرجل محسوستان، يعرضهما على شكل مثلين سائرين، يعرفهما كل عربي، ويدرك مغزاهما البعيد.

ويعقب ذلك بصورة موجعة مؤلمة في صيغة مثل سائر أيضاً في دنيا العرب، إذ يجعله فَقْعاً نابتاً على وجه الأرض. تطؤه الأقدام، وهو مثل يضرب للذليل، فيقال: «أَذَلُّ مِنْ فَقْعٍ بِقَاعٍ».

ولم يكتف بذلك المثل المهين، بل أتبعه بهذا التعقيب الموجع: «والذليل ذليل»، أي لا جدوى من نصحه وانتشاله من وهدة الذل والعار. وفي ذلك مبالغة في ذمّه والحطّ من شأنه، وأي مبالغة.

ويؤكد القاعدة المحكّمة المتّبعة في عرف العرب في صيغة حكمة: أن الرجل يعزّ بابن عمه ويقوى، فإذا ما ذلّ ابن عمه ضعف هو وذلّ، وكأنه يقول له: هذا هو الجزاء العدل لمن يذلّ ابن عمه.

ثم يبين الحكمة السائرة التي عَري منها ابن عمه، فيطلقها مثلاً شَروداً يدمغ تصرّفه الأخرق الثرثار، إذ كان لسانه بحق دليلاً على عوراته، وكان بالتالي لا عقل له يردّه عن القبيح.

ويرميه بعد ذلك بالجهل وضعف التمييز، إذ لم يفهم المُزاح الذي قصده طرفة حين ذكره في شعره، فحمله ذلك على الوشاية إلى عمرو بن هند، وإنشاده هجوه فيه.

وقد عرض طرفة هذه الأمثال التي تضمنت معاني عالية، وصوراً بديعة محكمة، وحكمة بليغة، في تعبير واضح موح رائق أخاذ، ينبض بإيقاع شجي لطيف حزين، يشي بما يعتمل في نفس طرفة من ألم ومرارة وحنق على ابن عمه الواشي النمّام.

د ـ هجاء حنانة الحاجب:

وممن تعرض طرفة لهجائهم حنانة الحاجب، إثر خلاف نشب بينهما، فوثب حنانة ليضرب طرفة بسيفه، فانتزع طرفةُ سيفَه وقال[1]:

لَقيتُ بأَسْفَلِ ذي جاسِمٍ ... حَنانَةَ كالْجَملِ الأَوْرَقِ[2]
فَأَهْوَى بأَبْيَضَ ذي غُلَّةٍ ... خَشِيبٍ يُريدُ بهِ مَفْرِقي[3]
فَساوَرْتُهُ فَاسْتَلَبْتُ الخَشِيبَ ... وأَعْجَلَ ثَيِّبَهُ رَيِّقي[4]
فَلَمّا ابتَدَرْنا كَبَا مُحْمَرٌ ... وكُنْتُ على البُعْدِ ذا مَصْدَقِ[5]
فَلَوْ كانَ سَيْفي لَغادَرْتُهُ ... صَريعاً على الجَنْبِ والمِرفَقِ
ولكِنَّهُ سَيْفُكُمْ فَاتَّقَى ... مَحارِمَكُمْ والمَنايا تَقي
نَعاني حَنانَةُ طُوبالَةً ... تَسَفُّ يَبيساً مِنَ العِشْرِقِ[6]
فَنَفْسَكَ فَانْعَ ولا تَنْعَني ... وَدَاوِ الكُلومَ ولا تُبْرِقِ

يصور طرفة حنانة في هذه الأبيات جملاً أورق في سوء منظره. ثم يبين ضعفه وتغلّبه عليه. ويسخر منه، فيشبهه بالحمار والنعجة.

وينهي المقطوعة بنصيحته إياه أن يتجنب الأبطال وتهديدهم، إذ لا قبل له بهم. وقد أبرزه في صورة قزَم حقير، استلب طرفة سيفه، وضربه ضربة لم تمته، ولكنها أخزته، ولو كان سيف طرفة بيده لكانت الضربة قاتلة.

وهو هجاء لاذع ساخر مؤلم، في لفظ قريب واضح رشيق، يبدو فيه طرفة عملاقاً بطلاً غالباً، وحنانة قزَماً ضعيفاً مغلوباً.

(١) ديوانه برواية ابن السكيت: ١٥، ١٦.
(٢) ذو جاسم: موضع. والأورق: الأسود يخالط سواده بياض.
(٣) غلة: عطش. والخشيب هنا: الصقيل.
(٤) ساورته: غالبته. ثيّبه: ما يثوب منه. والريِّق: الأول، أي أعجلته أن يضربني ثانية.
(٥) كبا: سقط. والمحمر: الذي يشبه الحمار.
(٦) نعاني: عابني وشهّر بي. وطوبالة: نعجة. والعِشرق: نبات. وطوبالة: منصوبة على الترحّم أو الذم. وعنى بها حنانة.

هـ ـ هجاء قبيلة تغلب:

أرسل عمرو بن هند قائداً من قواده يقال له الغلاّق بن شهاب التميمي، ليصلح بين بكر وتغلب، فاصطلحوا زُمَيْناً على دَخَن، وكأنهم يرصد بعضهم بعضاً. وتحاجزوا والقلوب بعدُ فيها ما فيها من العداوة، فأغارت تغلب على بكر، فقال طرفة في ذلك قصيدة، مطلعها:[1]

أَشَجَاكَ الرَّبْعُ أَمْ قِدَمُهْ أَمْ رَمَادٌ دارِسٌ حُمَمُهْ[2]

استهلها بالوقوف على الأطلال في أبيات سبعة، ثم انتقل إلى هجاء تغلب، فذكّرهم بنفير بكر لقتالهم في معركة، قاتل فيها أغنياء بكر وفقراؤهم سواء:[3]

تَذْكُرونَ، إذْ نُقاتِلُكُمْ لا يَضُرُّ مُعْدِماً عَدَمُهْ[4]

ثم جعلهم كشجر النخل جامدين، ينتظرون من يجزّ ثمره، وهي صورة مزرية بهم، إذ وقفوا ينتظرون منيتهم، وقد أينعت منهم الرؤوس، وحان قطافها:[5]

أَنْتُمُ نَخْلٌ نُطيفُ بِهِ فإذا ما جُزَّ نَصْطَرِمُهْ[6]

ووصفهم بعد ذلك بسوء الحال والضعة والضعف والهوان، فعذاريهم مشمّرة تقطع رديء النخل في امتهان وانكسار. أما عجائزهم فقد خرجن في ذلّ أيضاً مع العذارى يستدفئن بنيران ذلك النخل:[7]

وعَذارِيكُمْ مُقَلِّصَةٌ في دُعاعِ النَّخْلِ تَجْتَرِمُهْ[8]

---

(١) ديوانه: ٦٨.

(٢) الربع: محل القوم زمن الربيع. والدارس: الذي ذهب أثره. وحممه: فحمه.

(٣) ديوانه: ٧٠.

(٤) لا يضرّ معدماً عدمه: أي يقاتلكم الفقير المعدم منا ليغنم، فعدمه غير ضارّ له.

(٥) ديوانه: ٧١.

(٦) جُزّ التمر: بلغ وحان وقت قطافه.

(٧) ديوانه: ٧١.

(٨) مقلّصة: مشمّرة. ودعاع النخل: رديئه. وتجترمه. تصرمه وتقطعه.

وَعَجائِزٌ مَعاً لَكُمُ تَصْطَلي نيرانَهُ خَدَمُهْ

وجبههم بضعفهم وهوانهم وذلّتهم، إذ جعل خير مراعيهم يابس الطحماء الرديء أو رطبه، وهو مرعى المستضعفين الأذلاء المضيَّق عليهم في الأرض[1]:

خَيْرُ ما تَرْعَوْنَ مِنْ شَجَرٍ يابِسُ الطَّحْماءِ أو سَحَمُهْ[2]

ثم انتقل إلى ذكر مسعى الصلح بين بكر وتغلب الذي قام به الغلاّق التميمي، وبُنِيَ على خداع وكذب ودخن في القلوب، فكأنه ضرب بالقداح، فأتى قِدْحه بالغواية والشرّ، وعادت الحرب بين الحيين:[3]

فَسَعَى الغَلاّقُ بَيْنَهُمُ سَعْيَ خَبٍّ كاذِبٍ شِيَمُهْ[4]

أَخَذَ الأَزْلامَ مُقْتَسِماً فَأَتَى أَغْواهُما زُلَمُهْ[5]

وينصب بعد ذلك على بني تغلب مهدداً متوعداً، إن هم أعادوا الحرب أعادت لهم بكر الهجاء والحرب معاً. أما الهجاء فبقصائد سائرة شرود بين الناس، وأما الحرب فبجيش لجب عظيم، يلتهم كل شيء، ذي جلبة وضوضاء، كثير عدد الأبطال الكماة الأشاوس، يجتاحون القاع، فيحيلون أرضه المطمئنة مَراغاً تعجّ فيه الهَبَوات السود:[6]

إنْ تُعِيدوها نُعِدْ لَكُمُ مِنْ هِجاءٍ سائِرٍ كَلِمُهْ[7]

وقِتالٍ لا يُغِبُّكُمُ في جَميعٍ جَحْفَلٍ لَهِمُهْ[8]

---

(١) ديوانه: ٧٢.

(٢) الطحماء: شجر ليس بالطيّب. وسحمه: رطبه.

(٣) ديوانه: ٧٢.

(٤) الغلاّق: رجل من بني تميم بعثه العاهل المنذري ليصلح بين بكر وتغلب. والخب: الخدّاع.

(٥) الأزلام: جمع زُلَم، وهو القِدْح. وأغواهما: أي أغوى الأمرين.

(٦) ديوانه: ٧٤.

(٧) كلمه: أي قصائده، والعرب تقول للقصيدة كلمة.

(٨) لا يغبكم: أي لا ينقطع عنكم. وجميع جحفل: جيش مجتمع عظيم. ولهمه: أي يلهم كل شيء ويبتلعه.

رِزُّهُ قَـدِّمْ وهَـبْ وهَـلا ذي زُهـاء جَـمَّـةٍ بُـهَـمُـهْ[1]
يَتْـرُكـونَ الـقـاعَ تَـحْـتَـهُـمُ كـمَـراغٍ سـاطِـعٍ قَـتَـمُـهْ[2]

ويمضي في تصوير أبطال بكر، وحسن بلائهم في الحرب في إطار من التهديد الرعيب لبني تغلب، بإبراز شجاعة الفتى البكري، إذ لا تراه إلا ممسكاً بخناق بطل من بني تغلب يجهز عليه:[3].

لا تَـرَى إلّا أخـا رَجُـلٍ آخِـذاً قِـرْنـاً فَـمُـلْتَـزِمُـهْ[4]

لقد أصاب طرفة كبد الرمية في هذا البيت، فأتى بأبلغ عبارة، وأجمل صورة، إذ جلّى كثرة قومه، وإقدامهم، وتوزّعهم في الحرب توزّع الآجال على أعدائهم. واستغراقهم أعداءهم، بحيث لم تقع العين في ساحة المعركة إلا على بكري ملتزم تغلبياً يجالده، وبحيث لم يفلت في هذا اليوم تغلبي من قبضة بكري.

وإنه ليوم عصيب، طار فيه صواب الجبان، وانخلع فؤاده، ولم يصبر فيه إلا الشجاع الثبيت القلب والعقل:

فَـالْـهَـبِـيـتُ لا فُـؤادَ لَـهُ والـثَّـبِـيـتُ ثَـبْـتُـهُ فَـهَـمُـهْ[5]

يخلص لنا مما تقدم أن الهجاء عند طرفة اتخذ ألواناً متعددة؛ فهو هجاء شخصي لعبد عمرو بن بشر، وهو هجاء اجتماعي لبني المنذر، وهو هجاء سياسي لعمرو بن هند، وهو هجاء قبلي لقبيلة تغلب، هو أقرب ما يكون إلى الهجاء السياسي.

بيد أن طرفة مزج معظم هجائه باللون الشخصي الساخر كما رأينا في هجائه

---

(١) الرز: الصوت. وقدّم: أمر للفرس بالتقدم. وهب: زجر بمعنى كفّ. وهلا: زجر وإبعاد. وزهاء: كناية عن الكثرة والبُهَم: جمع بُهْمة وهو الشجاع الذي لا يدرى كيف يؤتى.

(٢) المراغ: موضع متمعّك الخيل.

(٣) ديوانه: ٧٥.

(٤) القِرْن: الصاحب في القتال.

(٥) الهبيت: المبهوت، يقال رجل هبيت ومهبوت ومبهوت بمعنى واحد، وهو الجبان المخلوع الفؤاد. والثبيت: الثابت القلب. وثبته فهمه: أي فهمه يثبت عقله وقلبه.

لعمرو بن هند وبني المنذر وعبد عمرو بن بشر.

وهو هجاء تقليدي حين يجرد المهجو من القيم الاجتماعية السائدة في عصره، ويجعل المهجو عارياً عن كل فضيلة ومنقبة صالحة، كما رأينا في هجائه بني المنذر.

وهو هجاء مبتكر جديد حين يمعن في السخرية من مهجوه، ويرسم له الصور (الكاريكاتورية) المضحكة، كما رأينا في هجوه عمرو بن بشر وبني المنذر.

وهو في كل صوره وألوانه هجاء نفّاذ مؤلم قاتل مُصْمٍ، نفّس فيه طرفة عن صدره المكروب، ونفسه الملوّعة من مكر الخصوم ومواقفهم، ومن ثَمّ جاء حار اللهجة، متقد الشعور، فخم الإيقاع، جزل العبارة في غير إغراب، واضح اللفظ في غير إسفاف.

ولقد خلت معظم قصائده في الهجاء من المقدمات الطللية أو الغزلية، وخلصت للهجاء، وفي ذلك دليل على حدّة انفعال الشاعر بالمعاني التي دارت في خلده، فقذف بها مهجوّيه، وبالصور التي ارتسمت في مخيلته لهم، فسارع إلى رسمها غير متلبث ولا مستأن، ولا ملتفت إلى تقديم أو تمهيد.

ولقد برزت في هذا الهجاء موهبة طرفة الرائعة في التصوير؛ إذ جاءت صوره دقيقة مثيرة شائقة محكمة، فدللت على تمكنه من هذا الفنّ، وتفوّقه فيه.

٥

المديح

إذا كان المديح في ديوان الشاعر العربي هو الصفحة المقابلة لصفحة الهجاء، فإن صفحة المديح في ديوان طرفة بن العبد تبدو باهتة هزيلة بجانب صفحة الهجاء.

ذلك أن القارىء ديوان طرفة لا يعثر إلا على أبيات معدودات في المديح، لا تثبت لصاحبها فيه باعاً طويلاً، ولا قدماً راسخة.

وهذا هو السبب الذي حدا بالرافعي إلى القول: «... وقد وصف طرفة النوق وصفاً شعرياً، ولكنه قصّر في صفة الخيل، وجاءت في كلمه متفرقات من الحكم والأمثال، وهي أبدع ما في شعره، ثم هو قد ضرب في الهجاء بالسهم الصائب ورجم فيه بالشهاب الثاقب، ولكنه قليل المديح نازل الطبقة فيه.»[1]

على أن الباحث المتأمل ديوان طرفة، وما ورد في المصادر القديمة من نقول حول مكانة طرفة الشعرية وفنون الشعر التي طرقها، يدرك أن كثيراً من شعره قد ضاع، ولم يصل إلينا مما صحّ له إلا القليل. ومن ثم لا يجد الباحث مندوحة من طرح هذا السؤال:

أكان لطرفة شعر كثير في المديح، ضاع فيما ضاع من شعره، ولم يصلنا منه إلا القليل، أم أنه لم يكن له شعر يذكر في المديح، لأنه لم يكن مبرّزاً في هذا الفن، وأنه كان قصير النفس فيه؟.

---

(١) تاريخ آداب العرب ٣/ ٢٢٥.

تثبت النقول أنه كان لطرفة مديح جيد، رفع به من قدر مَنْ صاغ فيه قلائد مدحه، كما وضع بهجائه من قدر مَنْ سدّد سهام هجائه إليه.

ففي البيان والتبيين: أن الذين هجوا فوضعوا من قدر مَنْ هجوه، ومدحوا فرفعوا من قدر مَنْ مدحوا، وهجاهم قوم فردّوا عليهم فأفحموهم، وسكت عنهم بعضُ مَنْ هجاهم مخافة التعرض لهم، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبة بأنفسهم عن الرد عليهم، وهم إسلاميون: جرير، والفرزدق، والأخطل. وفي الجاهلية: زهير، وطرفة، والأعشى، والنابغة، هذا قول أبي عبيدة[1].

فلطرفة إذاً شعر في المديح جيد، وطرفة واحد من أولئك الشعراء الذين رفعوا من قدر مَنْ مدحوه، فأين ذلك المديح؟ لا شك أنه قد ضاع.

وفي الأغاني ما يشير إلى أن طرفة كان يصفي مدائحه الملك عمرو بن هند.

يقول أبو الفرج: «أخبرني ابن دريد، قال: أخبرني أبو حاتم عن أبي عبيدة، قال: جاور أبو دؤ اد الإيادي كعب من مامة الإيادي، فكان إذا هلك له بعير أو شاة أخلفها، وفيه يقول طرفة يمدح عمرو بن هند:

جارٌ كجارِ الحُذاقِيِّ الذي انْتَصَفا[2]

وأورد التبريزي في شرحه للحماسة هذا الخبر في سياق حديثه عن (جار أبي دُؤ اد) الذي تضربه العرب مثلاً في كرم الجوار، فقال: «جار أبي دُوَاد الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان، وكان أبو دُوَاد الإيادي جاوره، فكان كلما تلف من مال أبي دُوَاد شيء أخلفه عليه الحارث، وما تزايد من ماله فله، فضربته العرب مثلاً في كرم الجوار، قال طرفة:

إنّي كَفـانيَ مِنْ هَمٍّ هَمَمْتُ بـهِ جارٌ كَجارِ الحُذاقِيِّ الذي اتَّصفا

أبو دُوَاد من حُذاقَة[3]».

(١) البيان والتبيين ٤/ ٨٣.
(٢) الأغاني ١٦/ ٣٧٣ (دار المعارف).
(٣) شرح الحماسة للتبريزي ٣/ ٣٩.

وهذا الخبر صريح الدلالة على أن طرفة كان يصوغ المديح في عمرو بن هند في الفترة القصيرة التي صفت فيها العلاقات بينهما. ويبدو أن عمرو بن هند أكرم مثواه في تلك الفترة، ورعى جواره وكفاه همه، حتى إن طرفة تمثل بهذا البيت الذي يشيد فيه بجاره عمرو بن هند، فشبهه بجار أبي دؤاد الذي ضربته العرب مثلاً في كرم الجوار.

فأين ذلك المديح الذي صاغه طرفة في جوار عمرو بن هند الذي ألمع إليه في هذا البيت؟ وإذا كان هذا المديح قليلاً، لأن فترة الوئام والصفاء بين طرفة والعاهل المنذري لم تطل، فأين ذلك القليل؟.

لا ريب أنه ضاع، ولم يبق شاهداً عليه إلا هذا البيت، وأبيات أخرى قليلة.

على أن هذه الأخبار التي تثبت لطرفة شعراً في المديح، لا تغيرّ من الحقيقة المستنبطة من دراسة شخصيته والأحوال التي أحاطت به في نشأته وشبابه، وهي أنه لم يكن مكثراً في المديح.

ذلك أن شخصية طرفة المعتدّة المستعلية الفخور، لا تسلس قيادها في العادة لهذا الضرب من القول إلا في حالات قليلة، تُشْحَن فيها النفس بعاطفة الوفاء والشكر والعرفان لمن أسدى إليها يداً لا تُجْحَد، أو غمر قومها بنعمة لا تُنْكَر.

زد على ذلك أن طبيعة الحياة التي تقلب فيها طرفة لم تدفعه إلى الوقوف بباب الممدوحين، اللهم إلا ما كان من وقوفه فترة قصيرة بباب عمرو بن هند، أدّت إلى هجائه، وكانت سبباً في قصف قناته الرطيبة في فجر الشباب.

على أن السبب الأساسي في إقلال طرفة من المديح، في رأيي، هو أنه كان شاعر قبيلة امتصّت كل ينابيع المديح في نفسه، وحوّلتها إلى مسالك في الفخر بقومه وبشمائلهم ومآثرهم وأيامهم، فإذا هو يشدو بتلك الشمائل والخلائق والأيام ملء قلبه وحناياه، ويهبها عصارة عبقريته وكنوز فنّه.

وما وصلنا من شعره الحي في المديح، إنما استمدّ حرارته وحيويته من صلته بقومه، ومن شعوره العميق بقيمة الإحسان إليهم، وتقديره البالغ لصاحب اليد المسداة.

ومن هذا الشعر مدحه لقتادة بن سلمة الحَنَفي الذي أغاث قومه في سنة أصابتهم؛ إذ جاءوه فبذل لهم من الرفد الجم والعطاء الجزل ما أطلق لسان طرفة في مديحه بحرارة وصدق وحسن تنويه[1]:

أَبْـلِغْ قَـتـادَةَ غـيـرَ سـائِـلِهِ ... منـهُ الثَّوابَ وعـاجِـلَ الشُّكْمِ[2]
إنّـي حَمِـدْتُـكَ لِـلْعَـشيـرةِ إذْ ... جـاءَتْ إليـكَ مُـرقَّـةَ العَـظْمِ[3]
أَلْـقَـوْا إلـيـكَ بُـكـلِّ أَرْمَـلةٍ ... شَعْثـاء تَحْمِـلُ مُنْقَـعَ البُـرْمِ[4]
فَفَتَحْتَ بـابَـكَ لِلْمَكـارِمِ حِيـ ... ـنَ تَـواصَتِ الأَبْوابُ بـالأَزْمِ[5]
فَسَقَى بـلادَكَ غيـرَ مُفْسِـدِهـا ... صَـوْبُ الرَّبيـعِ وديمَـةٌ تَهْمي[6]

إنه مديح صادق نابع من القلب، تشيع فيه أنداء المودّة، ويفوح منه عبير الوفاء والعرفان، لم يبتغ قائله من تنضيده غنيمة مرجوّة، ولم يرم إلى كسب مأمول. وإنما يوفيّ الممدوح حقه عما سبق له من بسط يده كريمة سحّاء على عشيرته التي جاءته ذات يوم مجهدة رقيقة العظم، فلاقت في رحابه الرفد والغوث والعون.

وقد جلّى طرفة كرم قتادة وسمو خلقه وسعة فضله على الناس، إذ شخّص بؤس عشيرته وفاقتها، الماثل في هيئة الأرامل الشعث البائسات المهزولات اللواتي جئن في ركب العشيرة، فإذا قتادة يفتح لهم بابه، ويغمرهم بالمكارم، في حين تواصى الناس بإغلاق الأبواب في وجوه العفاة والمحرومين.

إنها لمقارنة بارعة بين ما فعله هذا السيد الكريم الجواد، وما فعله غيره في أيام

---

(١) ديوانه: ٩٢.
(٢) الشكم: الجزاء على الشيء.
(٣) مرقة العظم: أي جاءت مجهودة رقيقة العظم.
(٤) الشعثاء: المتغيرة بالهزال وسوء الحال. والبُرْم: جمع بُرْمَة، وهي قدر من حجارة، وأراد بها ها هنا براماً صغاراً، وكانت المرأة تحملها ترتفق بها، وتنقع فيها أنكاث الأخبية. وتبلّها. وإذا نزلوا حكّنَ ذلك الغزل واتخذن الأخبية.
(٥) الأزم: الإطباق والإغلاق.
(٦) صوب المطر: وقعه. والديمة: المطر الدائم.

الشدّة والكرب العظيم، زاد في روعتها وجمالها هذا المجاز البديع، إذ أسند فيه التواصي للأبواب، وأراد أصحابها الأشحّاء الممسكين.

ومن هنا ينطلق لسان طرفة بهذا الدعاء الحار اللهج بالصدق لقتادة بالسقيا، وإنه لدعاء قرّظه علماء البلاغة العربية ونقّادها الذّوّاقون جمالها، وأثنوا عليه، إذ رأوه من أحسن ما وُصِف به المطر الخيِّر الليّـن السّحّ السكوب النافع الذي لا يخرّب البيوت، ولا يفسد المزارع، ولا يزيد على حاجتها وريّها.

وإني لأعتقد أن هذه الأبيات على قلتها تمثل أسلوب طرفة في مديحه، لأنها من شعره الصادق الصادر عن قلب ينبض بالحب والإعجاب والتقدير لرجل محسن كريم.

ومن ثم جاء أسلوبه فيها رائقاً رصيناً، قوامه اللفظ الكريم الحرّ الجزل المأنوس الواضح البيّـن، والتعبير الرّصين المحكم، يموج بالماء والرونق، ويزهو بشرف المعنى وبديع النظم.

وفيما عدا هذه الأبيات الجميلة، لا نعثر لطرفة على مديح إلا في أبيات، رواها ابن السكيت، إن صحت له، فهي مما قاله فيه في الفترة القصيرة التي صفت فيها العلاقات بين طرفة وعمرو بن هند، وهذه الأبيات هي[1]:

لَـوْ كـانَ في أَمْـلاَكِنـا أَحَـدٌ ... يَعْصِـرُ فينـا مثـلَ مـا تَعْصِـرْ[2]
لَـجُبْـتُ صَحْـنَـيِ الـعِـراقِ عَلَى ... حَـرْفٍ أَمـونٍ دَفُّـهـا أَزْوَرْ[3]
مَـتَّعَـنـي يـومَ الـرَّحيـلِ بِهـا ... فَـرْعٌ تَنَقّـاهُ الـقِـداحُ يَسَـرْ[4]
تَنْـزِلُ أَفْنـانَ الـصَّـريمِ مَـعـاً ... كَـأَنَّـهـا تَـرُوحُ أَوْ تَـبْـكُـرْ[5]

---

(١) ديوانه برواية ابن السكيت: ١٠.
(٢) يعصر: يعطي ويمنح
(٣) الحرف: الناقة الضامرة. والأمون: الموثّقة الخلق. ودفّها: جنبها. وأزور: مائل من نشاطها.
(٤) فرع كل شيء: أعلاه، ومن القوم شريفهم. والفرع: قدح من أعلى الغصن، وهذا مثل ضربه للمدوح. وتنقّاه: تخيّره. ويسر: سهل مُوسِر.
(٥) أفنان: أنواع. الصريم: القطعة من الرمل. تروح: تسير وقت الرواح، وهو العشي.

ذِ عُلبَةٌ في رِجْلِها رَوَحٌ ... مُدْبِرَةٌ، وفي اليَدَيْنِ عَسَرْ[1]
كَأنّها مِنْ وَحْشِ إنبِطَةٍ ... خَنْساءُ، يَحْنو خَلْفَها جُؤْزَرْ[2]
باتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةً، لَثِقٌ ... أوّلُها، شَنّانَةٌ ومَطَرْ[3]
ألْجأها في دِفْءِ غَرْقَدَةٍ ... يَحوطُها مِنَ البُروق سَدِرْ[4]
باكَرَها غُدْواً بأكْلُبِه ... مُشَجِّعَةُ الجَرْمِيُّ أوْ نَأْتَرْ[5]
فَأيْقَنَتْ إذْ ضاعَ مَطْلَبُها ... أنْ ليسَ يَخْلوم الكِلابَ مَكَرْ[6]
لا جابَةٌ مِنَ الجِذاعِ ولا ... يَخْلُجُها مِنَ الشَّبابِ كِبَرْ[7]
تَقُدُّ أجْوازَ الصَّريمِ كَما ... قُدَّ بإزْميلِ المُعِينِ خَوَرْ[8]
أعْطاكَ أهْلَ الطَّوْدِ عَنْ عُرُضٍ ... سَيْفَ صُحارٍ كُلَّها وهَجَرْ[9]
والجُونُ مِنْ رَبيعَةَ القَشْعِمْ ... تَكْنُفُهُمْ عَنِ اليَمينِ مُضَرْ[10]
مَنْ يَغْصِ مِنْهُمْ أمْرَ كَفِّكَ لا ... يَحْقُنُها في ما عِزٍ أوْفَرْ[11]

---

(١) الذعلبة: النعامة. والرَّوَح: السّعة. والعسر: الصعوبة والشدّة.
(٢) إنبطة: موضع معروف. وخنساء: متأخرة الأنف. والجؤذر: ولد البقرة الوحشية.
(٣) لثق أولها: أي نديّ. وشنّانة: تصب الماء.
(٤) الغرقدة: واحدة الغرقد، وهو شجر عظيم. والسَّدِرْ المتحيّر، يعبرون بتحيّر السحاب عن كثرة مطره.
(٥) مشجعة الجرمي ونأتر: قانصان.
(٦) أي أيقنت هذه البقرة أنها إذا لم تصدها الكلاب أول مرة، فسوف تصطادها إذا كرّت عليها.
(٧) الجابة: الظبية وقت طلوع قرنها. والجذاع: جمع جَذَعة، وهي الحَدَثة قبل أن تكون ثَنِيّة، ويخلجها: ينتزعها.
(٨) تقدّ: تقطع وتشقّ. أجواز: أوساط. والصريم: قطعة الرمل. والإزميل: شفرة الحذّاء. والمعين: الأجير وخور: لينٌ، صفة لمحذوف، أي جلد خور.
(٩) الطود: الجبل. وعن عُرُض: عن غير قصد. وصحار: قصبة عُمان. والسيف هنا: ساحل عُمان. وهجر: اسم لجميع أرض البحرين.
(١٠) الجون: بطن من ربيعة بن نزار. والقَشْعِمْ: أراد القَشْعَم، فوقف وألقى حركة الميم على العين كما قالوا: «البَكِر» (اللسان ـ قشعم، والمحكم ٢/ ٢٨٤)، ومعناه: الكبير المسنّ، وهو لقب لربيعة بن نزار.
(١١) لا يحقنها: لا يحميها. وماعز: صلب شديد. وأوفر: أي السقاء الأوفر، وهو الذي لم ينقص من أديمه

كَـأَنَّ بَـيْضَ الـدّارِعِـيـنَ عَـلَى رُؤوسِهِمْ قَبْـلَ الصَّبـاحِ جُـدَرْ[1]

يستهل هذه الأبيات بالمديح، فيجعل من عمرو بن هند الكريمَ الفذَّ الذي لا ندّ له بين الملوك في عطائه وهباته. ولو كان فيهم مثله لاجتابَ طرفة صحني العراق على ناقته الضامرة القوية، يمتاح بحور العطاء والجود.

وهو إلى كرمه من علية القوم وأشرافهم، أمتعه أن يشدّ الرحال إليه على ناقته. ومن ثَمّ انطلق في وصف ناقته وقوتها وسرعتها، فشبهها بنعامة ولت الأدبار، أو بقرة وحشية خنساء، لها ولد صغير، أمضيا ليلة مطيرة في ظل شجرة تقيهما المطر المنهمر. وفي الصباح باكر البقرة وابنها صياد مشهور يسعى بأكلبه الضارية، فانطلقت فزعة هاربة تشق أجواز الرمال.

ثم عاد للمديح، فأشاد بسيطرة عمرو بن هند وغلبته على القبائل العربية، فأهل عمان والبحرين دانوا له، وكذلك بنو ربيعة، وعن يمينهم مضر. ونوّه بقوته ورهبته، إذ لا يعصم خصومَه من ضرباته عاصم.

لقد أبرز طرفةُ عَمرَو بن هند في هذه الأبيات قوياً مهيمناً، مطاع الكلمة، مرهوب الجانب، ولكنه لم يبرزه ذلك القوي المحبوب الذي تجتذ بنا قوته، فإذا نحن نتعاطف معه، ونحب القوة التي تجسّدت فيه.

ولعل السبب في ذلك أن القيم الشعورية في الأبيات ضئيلة شحيحة، والنَّبض العاطفي واهٍ ضعيف؛ ذلك أن الشاعر اعتصر أبياته اعتصاراً، ولم تبتدرها نفسه ابتداراً وشتان ما بين شعر اعتصره الذهن، وشعر فاضت به النفس.

وهذاالجفاف العاطفي يبعد القصيدة عن روح طرفة، ويحملني على الشك في أنها له، ومما يزيدني شكاً فيها أنها لا تشبه قصائده في منحاها وأسلوبها.

شيء. وهذا مثل يقوله الرجل للرجل، يتوعده بذلك.

(١) البيض: الحديد. والدارعين: الذين عليهم دروع الحديد. وجُدَر: زيادة في البدن كالغُدّة، تتحرك إذا حُرّكتْ.

٦

الحكمة

تناثرت الحكمة في قصائد طرفة، ولم تستقل بقصيدة أو مقطّعة، شأنها في ذلك شأن الحكمة في القصيدة العربية القديمة، التي جعلها الشاعر العربي وعاء لأغراض شتى، منها الحكمة.

فالقارئ ديوان طرفة يقع على الحكمة هنا وهناك، يطلقها تارة مجردة لا يريد منها إلا المعنى الذي تحمله، ويربطها تارة بسياق الموضوع الذي يعالجه، ويصبغها بصبغه الخاص، فيأتي بها تعليقاً على الفكرة التي يبحثها، وتعقيباً على الرأي الذي يدعو إليه.

والحكمة في شعر طرفة بنت تفكيره ومشاهداته وتأملاته في أحوال الناس والحياة، يضمنها ما استقاه من مشاهداته، وما حصّله من خبراته في الحياة والأحياء، وما اعتنقه من رأي، وما ارتضاه من مذهب في الحياة.

فالموت ورد الناس منذ الأزل، وكل نفس لا بد لها من الورد المورود، وإن لم تمت في يومها فستموت في غدها، وما أقرب اليوم من الغد[1]:

أَرَى الموتَ أَعْدادَ النُّفوسِ ولا أَرَى بَعيداً غداً ما أَقْرَبَ اليومَ مِنْ غَدِ[2]

---

(١) معلقته: ١٠١.

(٢) الأعداد: جمع عِدّ، وهو الماء الكثير الموزود.

إنها صورة رائعة تمثل ورود المواكب البشرية على هذا الورد المورود الدائم الغزير الذي لا ينفد ماؤه على كثرة الواردين من عهد آدم.

والأيام ستسفر لك عما كانت تخبئه، وتبدي لك ما كنت تجهله. ويأتيك بالأخبار من لم تكلفه بها، ولم تزوّده في البحث عنها، ولم تضرب له موعداً لذلك:[1]

سَتُبْدي لَكَ الأَيَّامُ ما كُنْتَ جاهِلاً ... ويـأتيكَ بـالأَخْبـارِ مَنْ لَمْ تُـزَوِّدِ
وَيأْتِيكَ بالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبِـعْ لَهُ ... بَتاتاً، ولَمْ تَضْرِبْ لهُ وقتَ مَوْعِدِ[2]

وهي معان بديعة، أحسن طرفة في تكثيفها وسبكها في هذه الأبيات الثلاثة. وقد أعجب بها جرير أيما إعجاب، ولما سئل: من أشعر الناس؟ قال: الذي يقول:

ما أَقْرَبَ اليومَ مِنْ غَدِ
ولَـمْ تضربْ لهُ وقتَ مَوْعِدِ[3]

ومن حكمته التي ساقها تعقيباً على توعّده أعمامه الذين أكلوا حقه وحق أمه بالباطل قوله:[4]

قَـدْ يُـورِدُ الـظُّلْمُ المُبِينُ آجِناً ... مِلْحاً يُخالَطُ بِالذُّعافِ ويُقْشَبُ[5]
وقِـرافُ مَنْ لا يَسْتَفيقُ ذَعَـارَةً ... يُعْدي كَما يُعْدي الصَّحيحَ الأَجْرَبُ[6]
والإِثْمُ داء ليسَ يُـرْجَى بُـرْؤُهُ ... والبِـرُّ بُـرْءٌ ليسَ فيهِ مَعْـطَبُ[7]
والصِّـدْقُ يألَفُـه اللَّبيبُ المُرْتَجَى ... والكِـذْبُ يَـألَفُـهُ الـدَّنِيُّ الأَخْيَبُ

فالظلم يجرّ إلى أوخم العواقب، ويؤدي إلى مرّ النتائج، ويمثل تلك النتائج

---

(١) معلقته: ١٠٢، ١٠٣.
(٢) البتات: الزاد. والبيع هنا بمعنى الشراء.
(٣) ديوانه: ٤٥.
(٤) ديوانه: ١٠٣.
(٥) تقدّم البيت وشرحه ص ٤٣.
(٦) القراف: المداناة والملابسة. والذعارة: كالدعارة، وهي الخبث والفساد.
(٧) المعطب: الهلاك.

المرّة التي يدفع إليها الظلم بالماء الآسن المتغير الملح، يخالطه السم الزعاف.

ومخالطة الخبيث السادر في غوايته وغيّه، يعدي الإنسان الفاضل السويّ، كما يعدي الأجرب من الإبل الصحيح.

والإثم داء لا برء منه، والبرّ شفاء لا معطب فيه، والصدق يألفه اللبيب المُرَجّى لكل خير، والكذب يألفه الدنيء الأخيب السفيه.

وقد لوّح طرفة بهذه الأبيات من الحكمة لأعمامه، حاثاً إياهم على التخلّق بقيمها الخلقية الإنسانية، فذلك أليق بهم وأجدر.

ثم لمس وجدانهم لمسة عميقة بأن الحياة مؤقتة زائلة، وأنه سيهلكهم ما أهلك عاداً والقرون الأولى، إذ شعبتهم المنية جميعاً، وفرّقت جمعهم تفريقاً لا رجعة بعده[1]:

وَلَقَدْ بَدا لي أَنَّهُ سَيغُولُني ... ما غالَ عاداً والقُرونَ فأَشْعَبوا[2]

ونجد مثل هذا الضرب من الحكمة الذي ساقه طرفة تعقيباً على الموضوع الذي يخوض فيه، في قصيدته التي هجا فيها ابن عمه عبد عمرو بن بشر، فبعد أن كالَ له الصفعات الشداد، راح يردّد على مسامعه القاعدة المحكّمة المتّبعة في عرف العرب، وهي أن الرجل يعزّ بابن عمه ويقوى به، فإذا ما ذل ابن عمه ضعف هو وذلّ[3]:

وأَعْلَمُ عِلْماً ليسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ ... إذا ذَلَّ مَوْلَى المَرْءِ فَهْوَ ذَليلُ[4]

ثم يبين الحكمة السائرة التي تصدق على ابن عمه، فيطلقها مثلاً شروداً يدمغ تصرّف ابن عمه الأخرق الثرثار؛ إذ كان لسانه بحق دليلاً على عوراته، وكان بالتالي لا عقل له يردّه عن قول القبيح[5]:

(١) ديوانه: ١٠٣.
(٢) يغولني: يهلكني. وأشعبوا: ماتوا.
(٣) ديوانه: ٨٠.
(٤) تقدم البيت وشرحه ص ١٥٢.
(٥) ديوانه: ٨٠.

وإنَّ لسانَ المَرْءِ ما لَمْ تَكُنْ لَهُ حَصاةً على عَوْراتِهِ لَدَليلُ[1]

يتضح لنا مما تقدم من نماذج الحكمة في شعر طرفة أنها من بديع شعره، لما تضمنت من أفكار رزينة، توهم في كثير من الأحيان أن قائلها شيخ مجرب، عركته الأيام، وحلب أشطر الدهر.

إنها حكمة ناضجة من شاب حدث، تدل على عقل حصيف، وفكر نيرّ، أكبر من عمره الزمني. وجمال هذه الحكمة بصدقها الشعوري، ذلك أن طرفة لم يطلقها فكرة ذهنية باردة باهتة. بل غمسها بحوضه النفسي المتأجج بحميّا الانفعال، وبخاصة حينما كان يقدّ الحكمة تعقيباً على الفكرة التي يعالجها وتعليقاً، فتأتي متوهجة حارّة، قريبة من النفوس، لصيقة بالقلوب، لا يعوزها وضوح، ولا يؤودها تعقيد.

وقد صاغها طرفة بأسلوب سمح طلق مأنوس، لا وعورة فيه ولا حوشي ولا غريب، بل فيه السبك البديع، وفيه الماء والرونق والطلاوة، تنبعث منه الموسيقا متئدة رزينة، شجية الإيقاع، منسربة من اللفظ الكريم الفصيح، والتركيب الرصين المحكم النسج، الحسن الصياغة والتأليف.

ولطرفة، عدا هذه الحكمة المبثوثة في قصائده، نظرات تأخذ شكل الحكمة، تعبر عن فلسفته التي ارتضاها لنفسه في الحياة، وراح يعلنها إعلاناً مدوّياً من غير تحفّظ ولا تستّر، مدلّلاً بذلك على حماسته لها وقوة إيمانه بها:[2]

ألا أيُّهاذا الزّاجري أحضُرُ الوَغَى وأنْ أشهدَ اللّذّاتِ هَلْ أنْتَ مُخْلِدي؟
فإنْ كُنتَ لا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتي فَذَرْني أُبادِرْها بِما مَلَكتْ يَدي[3]

فإذا كان الموت حتمًا لا بد منه، وإذا كنت أيها الزاجر اللاحي لا تستطيع أن تدفعه عني، فدعني أبادر المنية بإنفاق ما لديّ من مال قبل حلولها، وأعبّ من حوض

---

(١) تقدم البيت وشرحه ص ١٥٢

(٢) معلقته: ٥٤.

(٣) أبادرها: أي أبادر المنية بإنفاق ما ملكت يدي.

باللذات ما اتسع لي العبّ، غير ملتفت إلى شيء آخر في الوجود.

ثم يبين أنه لولا ثلاث من لذات حياته التي يعز عليه مفارقتها، لما بالى متى حمّ ميقاته ودنا أجله، وأرنّت عليه النائحات: [(١)]

فَلَوْلا ثَلاثٌ هنَّ مِنْ حاجةِ الفَتى   وجَدِّكَ لم أحفِلْ متى قامَ عُوَّدي[(٢)]

وأولى هذه اللذات: سبقه العاذلات اللائمات بشربة خمر حمراء، متى صبّ عليها الماء علاها الزبد[(٣)]:

فَمِنهُنَّ سَبْقي العـاذِلاتِ بشَـرْبَـةٍ   كُمَيْتٍ، متَى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ[(٤)]

وثانيها: عطفه عنانَ فرسه استجابة للمستغيث، كارّاً على العدو بجواده المحنّب، المنطلق من مكمنه، كأنه ذئب الغضا المستوحش الهائج في طلب الماء[(٥)]:

وكَرِّي إذا نادَى المُضـافُ مُحَنَّباً   كَسِيدِ الغَضَا، نَبَّهْتَهُ، المُتَوَرِّدِ[(٦)]

وثالثها: تقصير يوم الدّجن باللهو بالفاتنة الجميلة البضّة، المتألّقة في خلاخيلها وأسورتها، تحت البيت المرفوع المشدود بالأطناب: [(٧)]

وتَقْصيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ   بِبَهْكَنَةٍ تحتَ الطِّرافِ المُعَمَّـدِ[(٨)]

كَـأَنَّ البُـرِينَ والـدَّمـاليـجَ عُلِّقَتْ   على عُشَرٍ، أو خِرْوَعٍ لم يُخَضَّدِ[(٩)]

ثم يدعو لائمه أن يذره يعطي نفسه سؤلها، فيرويها من شرب الخمر قبل أن

---

(١) معلقته: ٥٦.
(٢) تقدم البيت وشرحه ص ٤٥.
(٣) معلقته: ٥٧.
(٤) تقدم البيت وشرحه ص ٤٦.
(٥) معلقته: ٥٨.
(٦) تقدم البيت وشرحه ص ٤٦.
(٧) معلقته: ٥٩، ٦٠.
(٨) تقدم البيت وشرحه ص ٤٦.
(٩) البرين: الخلا خيل. والدماليج: جمع دُمْلُج، وهو المعضد من الحلي. والعشر: شجر أملس ليّن العود. والخروع: نبت ناعم. ولم يخضّد: لم يُثْنَ ليُكْسَر.

يدركه الموت، وينقطع شرابه، ولما يبلغ الريّ:[1]

فَذَرْني، أُرَوّي هامَتي في حَياتِها ... مَخافَةَ شُرْبٍ في المَمَاتِ مُصَرَّدِ[2]

ويحتج لفكرته هذه بأنه كريم يحب أن يروّي نفسه في حياته، ويخاطب لائمه مخاطبة الواثق من صحة آرائه قائلاً: ستعلم من سيكون العطشان بعد الموت:[3]

كريمٌ يُرَوّي نَفْسَهُ في حياتِهِ ... سَتَعْلَمُ إنْ مُتْنا صَدَى أَيُّنا الصَّدِي[4]

ثم ينظر إلى الموت الذي يسوّي بين البخيل بماله والغويّ المبذّر مالَه في سبيل اللذات، يسوّي بينهما في القبر، وينظر إليه يتخطّف كرام الناس، ويصطفي أنفس مال البخيل المتشدّد. ثم ينظر إلى المال، فيراه كنزاً يتناقص يوماً بعد يوم، محاولاً أن يؤصّل لنظريته، ويبرهن على صحتها في وجوب الانطلاق في تبذير المال على اللذة واللهو والاستمتاع:[5]

أَرَى قَبْرَ نَحّامٍ بَخيلٍ بِمالِهِ ... كَقَبْرِ غَوِيٍّ في البَطالَةِ مُفْسِدِ[6]

تَرَى جُثْوَتَيْنِ مِنْ تُرابٍ عليهما ... صَفائحُ صُمٌّ مِنْ صَفيحٍ مُنَضَّدِ[7]

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرامَ ويَصْطَفي ... عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ[8]

أَرَى المالَ كَنْزاً ناقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ ... وما تَنْقُصِ الأَيّامُ والدَّهْرُ يَنْفَدِ

وواضح أن منطلق طرفة في فلسفته التي ارتضاها لنفسه في الحياة أن الإنسان صائر للموت لا محالة، وإذا كان هذا مصيره المحتوم، فينبغي أن يبادر اللذات،

---

(١) معلقته: ٦١.

(٢) المصرّد: الذي يقطع قبل الريّ.

(٣) معلقته: ٦٢.

(٤) الصَّدَى ها هنا: جثمان الرجل بعد موته. وأينا الصّدي: أينا العطشان.

(٥) معلقته: ٦٣ ـ ٦٦.

(٦) النحّام: البخيل. والغويّ: المبذّر.

(٧) الجثوة: تراب القبر. والمنضد: الذي نُضِّد على القبر، أي جُعِل بعضه فوق بعض.

(٨) يعتام الكرام: يختارهم ويخصّهم. وعقيلة كل شيء: خياره وأنفسه. والفاحش: السيء الخلق. والمتشدّد: البخيل.

وينتهبها انتهاباً، وينفق في سبيل اقتناص تلك اللذات ما في يده من مال.

وهي فلسفة جاهلية منبثقة عن تصور محدود هابط لحقيقة الحياة الإنسانية، لا نلمح فيها جانباً مشرقاً سوى خلق الفروسية الذي ألم إليه قبل قليل بقوله:

وكَرِّي إذا نادَى المُضافُ مُحَنَّباً   كَسِيدِ الغَضَا، نَبَّهْتَهُ، المُتَوَرِّدِ

وإذا كنا نقبل من طرفة خلق الفروسية الذي تغنى به، واعتبره من لذّاته الثلاث، فإننا لا نقبل جوانب فلسفته الجاهلية الأخرى التي عرضها في معلقته، على ما تألّق فيها من صنيع فني بارع، تجلّى في اللفظ الجزل الفصيح، والصورة المترفة الشاخصة، والتعبير الرائق الجميل.

ذلك أن الحياة الإنسانية أجلّ وأكبر من أن تُكَرَّس للعبث واللهو والشراب والمجون.

٧

الحنين

سلف القول إن الأسفار تقاذفت طرفة، فأبعدته عن الديار التي حُلّت فيها تمائمُهُ، وتفتّحت طفولته، وازدهر صباه، ودرج على ثراها، وتنسّم عبير هوائها، وكان له في كل شبر من ربوعها ذكرى، تدمع العين، وتدمي القلب، وتلذّع النفس.

كان يتلفّت في منتآه القصيّ، فلا يجد حوله الأهل الخلّص، ولا الأحبة الأوفياء، بل كان لا يجد إلا وجوهاً متجهّمة، وسحناً غريبة متقبّضة. ويبدو أنه كان يعاني من سقم ألم به، زادته الغربة ألماً ووحشة وضيقاً وتعذيباً.

فلا بدع أن تفيض نفسه الشاعرة الحسّاسة المرهفة بشعر حزين، يترجم ما يعتمل في خبيء نفسه من مشاعر الألم والشوق والشكوى والحنين.

ومن هذا النمط من الشعر العاطفي الحزين قصيدته الخامسة في رواية الأصمعي، التي يبوح فيها بخبيء القلب وخلجات النفس وهمسات الضمير، متخذاً للأهل والديار والأحبة الذين يحنّ إليهم رموزاً يخاطبها عن بعد ويناجيها[1]:

قِفي وَدِّعينا اليومَ يـا ابنةَ مـالِكِ ... وعُوجي عَلَيْنا مِنْ صُدورِ جِمالِكِ
قِفي لا يَكُنْ هــذا تَعِلَّةَ وَصْلِنـا ... لِبَيْنٍ ولا ذا حَظُّنا مِنْ نَـوالِكِ[1]

(١) ديوانه: ٨١.
(٢) تقدم البيت وشرحه ص ٨٧.

أُخَبِّـرْكِ أَنَّ الحَيَّ فـرَّق بَيْنَهُـمْ ... نَوًى غَرْبَةٌ ضَرّارَةٌ لي كَـذلِكِ[1]

ولا غَـرْوَ إلاّ جـارَتي وسُؤالُهـا ... أَلا هَلْ لَنا أَهْلٌ؟ سُئِلْتِ كَذلِكِ[2]

تُغَيِّـرُ سَيْري في البِـلادِ ورِحْلَتي ... أَلا رُبَّ دارٍ لي سِوَى حُرِّ دارِكِ[3]

وليسَ امرُؤٌ أَفْنَى الشَّبابَ مُجاوِراً ... سِـوَى حَيِّهِ إلاّ كَـآخَرَ هـالِكِ[4]

أَلا رُبَّ يَوْمٍ لَو سَقِمْتُ لَعـادَني ... نِسـاءٌ كِرامٌ مِنْ حُيَيٍّ ومـالِكِ[5]

ظَلِلْتُ بِذي الأَرْطَى فُوَيْقَ مُثَقِّبٍ ... بِبيئَـةِ سُوءٍ هـالِكاً أَوْ كَهـالِـكِ[6]

تَـرُدُّ عَلَيَّ الـرِّيـحُ ثَـوْبِيَ قـاعِـداً ... إلى صَـدَفِيٍّ كـالحَنِيَّـةِ بـارِكِ[7]

يستهل طرفة قصيدته هذه بموقف وداع، يوحي منذ البدء بنفسيته المتألمة الحزينة الملوّعة بفراق قومه وديارِه وأحبته، وما ابنة مالك التي طلب إليها أن تقف لوداعه، وبنات مالك، وبنات حُيَيّ، اللاّتي ترددت أسماؤ هنّ في الأبيات إلا رموز عن دياره وقومه وأحبته الذين برّح بنفسه فراقهم، وها هوذا يحنّ إليهم، ويفضي بالصبابة التي يعانيها، والشوق الذي يكابده من فراقه إياهم، وبعده عنهم.

إنه ليخبر ابنة مالك، والألم يقطّع نياط قلبه، بالغربة البعيدة الضرّارة التي أضرّت بالحي كله وبه هو بالذات.

ثم يتبع ذلك ببيتين يفيضان بالأسى واللوعة من الاغتراب والبعد عن الأهل والديار يتمثل في الدعاء على جارته أن تُبتَلى بما ابتُلِيَ به من غربة قاتلة، فتُسْأَل السؤال الذي سألته إياه: أما لك أهل تأوي إليهم؟ وإنه لسؤال فجّر في قلبه ينابيع

---

(١) تقدم البيت وشرحه ص ٨٧.

(٢) تقدم البيت وشرحه ص ٨٧.

(٣) تقدم البيت وشرحه ص ٨٨.

(٤) تقدم البيت وشرحه ص ٨٨.

(٥) حُيَيّ: بطن من قيس بن ثعلبة. ومالك: يعني مالك بن سعد بن مالك، من رهط طرفة.

(٦) ذو الأرطى: موضع فيه أرطى، وهو شجر يدبغ به. ومثقّب: موضع.

(٧) الصدفيّ: بعير منسوب إلى صدف، وهو حي من حضر موت. والحنيّة: القوس، شبه البعير بها لضمره.

الحنين للأهل والديار، وأترع نفسه بالأسى واللوعة لفراقهم، فدعا عليها: سُئِلْتِ كذلكِ.

ويمضي في تصعيد آهات الشوق والحنين الحرّى من أعماق نفسه الملذعة، فيجيب جارته بأسى بالغ، وحرقة كاوية، وألم دفين:

ألا رُبَّ دارٍ لي سِوَى حُرِّ دارِكِ

وكم في قوله: «ألا رب دار لي» من أسرار وذكريات وأشواق، يهفو لها قلب المغترب المحزون البعيد.

وتتجلى لعينيه فداحة الغربة التي سلخت أماليد الشباب بعيداً عن الحي الأهل الطروب، والأهل الأحبة الخلّص، فيبلورها في بيت من الحكمة يقول: إن الذي يفني زهرة شبابه في غربة بعيداً عن دياره وقومه كشخص هالك، لما يلقى من ذل وهوان وشقاء ووحشة.

ويعود فيؤكد مضمون تلك الحكمة التي أطلقها بعرض المفارقة الأليمة بين الإقامة بين الأهل والاغتراب، تتجلّى لعين المغترب النائي المريض، تزيده الغربة سقمًا على سقم، وتلمع في خاطره الحقيقة المرّة سافرة مؤلمة: إنه لَقيً ضائع ضعيف متألم بائس مكروب، ليس بجانبه من يعوده فيخفف عنه من أوضار المرض والكرب، ولو كان في دياره بين أهله وقومه، لحفّ به أهلوه ومحبوه، يعودونه، ويؤنسونه، ويفدّونه بأنفسهم.

وهذا ما عاناه طرفة في غربته، ويبدو أنه عاش هذه المعاناة الشعورية بكل مفارقاتها، فذكر عائداته حين سقمه في بلاده، وهن نساء كرام من حُيَيّ ومالك من بني قومه، وما لعيادتهنّ من أثر طيب في نفسه، تخفف عنه وطأة المرض، وتجلو عن نفسه وحشة السقم والوحدة، وهو الآن بذي الأرطى فُوَيْق مُثَقِّب سقيم ببيئة سوء، هالك، أو شبه هالك، قاعد في مهب الريح، مستند إلى بعيره الضامر المهزول البارك، وليس ثمة سواه في هذا المكان النائي الموحش يبثه ألمه ووحشته وأشواقه. فيا للمفارقة الأليمة بين الإقامة بين الأهل والاغتراب!

ومن هذا الضرب من الشعر الذي يحنّ فيه طرفة إلى دياره وقومه قوله[1]:

أَلا إنَّمـا أَبْكي لِيَـوْمٍ لَـقِيتُـهُ ... بِجُرْثُمَ قاسٍ كُلُّ ما بَعْدَهُ جَلَلْ[2]
إذا جـاء ما لا بُـدَّ منْهُ فَمَـرْحَبَاً ... بِهِ حينَ يَأتي لا كِذابٌ ولا عِلَلْ[3]
أَلا إنَّني شَـرِبْتُ أَسْـوَدَ حـالِكـاً ... أَلا بَجَلي مِنَ الشَّرابِ أَلا بَجَلْ[4]

إنها أبيات تصور ما لاقى طرفة في غربته من بؤس، وما عانى من عذاب، أبكاه، وجعله يرى كل عذاب دونه هيّناً سهلاً.

وقد تحمل ما قُدِّر عليه من عذاب، وصبَر عليه، ولكنه سرعان ما عاد يشكو من العَذاب الذي عاناه معبّراً عنه بالشراب الأسود الحالك، صائحاً بملء فيه: ألا حسبي من هذ السم القاتل حسبي.

وليس أدل على لوعته الكاوية المحرقة وتململه من العذاب الشديد الذي نزل به، من تكراره الأداة (ألا) ثلاث مرات في البيت الثالث، وقبله مرة في البيت الأول، للفت الانتباه إلى سوء حاله، فضلاً على ما في تكرار هذه الأداة من دلالة نفسية، إذ ينفّس بها عن نفسه المتوارة بالضيق والكرب، ويفضي بخبيء القلب المعنّى المكلوم: ألا إنني شربت... ألا بَجَلي.. ألا بَجَلْ.

لكأنه يصيح بصوت مبحوح غاصّ بالحسرة والكرب: ألا حسبي من شراب أغصّ فيه، وأكابد لذع سمّه في أحشائي، ولكأن العبرة تخنقه، وهو يصيح هذه الصيحة الحزينة.

ويعمر هذا اللون من شعر الحنين نغم حزين حنون، ينسرب من الألفاظ الموحية الحزينة، وحروف المدّ التي حفلت بها الأبيات، ويصور الجو الشعوري الصادق الذي عاناه الشاعر حين فاضت نفسه بهذا النمط من الشعر.

---

(١) ديوانه: ٨٩.
(٢) جرثم: موضع. والجلل هنا: الصغير.
(٣) ولا علل: أي أحتمله ولا أعتلّ عليه.
(٤) بجلي: حسبي.

٨

اللوم والعتاب

لم تخل حياة طرفة من المنغّصات، بل كانت حافلة بها. وكان من أشدّها على نفسه مواقف بعض أقاربه وأصحابه منه، فقد تخلّى بعضهم عنه، وقلب بعضهم له ظهر المجن، وتقاعس آخرون عن نصرته ومؤازرته في ساعة الشدّة والكرب.

ولم تجد نفس الشاعر ابن العشرين المتأججة بالحماسة، الفوّارة بدم الشباب الحار بدّاً من أن تنصب على هؤلاء جميعاً باللوم والعتاب والتقريع، فاضحة زيف صداقتهم، هاتكة الستر عن سوء طواياهم، كاشفة مخازيهم ومواقفهم الفاسدة الرعناء.

لقد حز في نفس طرفة موقف أعمامه الذي عَدَوْا على ما آل إليه وإلى أمه من إرث أبيه، مستغلين يتمه وضعف أمه وغيبة رهطها عنها، وأبَوْا أن يعطوا لكل ذي حق حقه، فكان لهذا الافتئات أثره في نفس طرفة المتفتّحة على الحياة، الكارهة للظلم والباطل والطغيان، فإذا هي تفيض بشعر، فيه اللوم والتقريع والتبصير والتهديد لهؤلاء الأعمام:[1]

مـا تَنْـظُرونَ بِحَقِّ وَرْدَةَ فيـكُمُ صَغُرَ البَنونَ ورَهْطُ وَرْدَةَ غُيَّبُ[2]

---

(١) ديوانه: ١٠٢. وقد تقدمت الأبيات ص ٤٣ وص ١٦٧.

(٢) وردة: أم طرفة، وهي من بني مالك بن ضبيعة.

قَدْ يَبْعَثُ الأَمْرَ العَظيمَ صَغِيرُهُ ... حَتّى تَظَلَّ لهُ الدِّماءُ تَصَبَّبُ

والظُّلْمُ فَرَّقَ بينَ حَيَّيْ وائِلٍ ... بَكْرٌ تُساقِيها المَنايا تَغْلِبُ

قَدْ يُوردُ الظُّلْمُ المُبِيْنُ آجِناً ... مِلْحاً يُخالَطُ بِالذُّعافِ ويُقْشَبُ[1]

وقِرافُ مَنْ لا يَسْتَفيقُ ذَعارَةً ... يُعْدي كما يُعْدي الصَّحيحَ الأَجْرَبُ[2]

والإِثْمُ داءٌ ليسَ يُرْجَى بُرْؤُه ... والبِرُّ بُرْءٌ ليسَ فيهِ مَعْطَبُ[3]

والصِّدْقُ يألَفُهُ اللَّبيبُ المُرْتَجَى ... والكِذْبُ يألَفُهُ الدَّنيُّ الأَخْيَبُ

ولَقَدْ بدا لي أَنَّهُ سَيَقولُني ... ما غالَ عاداً والقُرونَ فَأَشْعَبُوا[4]

أَدُّوا الحُقوقَ تَفِرْ لكمْ أَعْراضُكُمْ ... إنَّ الكَريمَ إذا يُحَرَّبُ يَغْضَبُ[5]

ينصب طرفة على أعمامه بهذا الاستفهام المفعم بالاستنكار والتوبيخ لأكلهم حق أمه بالباطل، مستغلين صغر أبنائها وغيبة قومها: ما تنظرون بحق وردة فيكم؟!

إنها المجابهة المحرجة المخجلة لمن أكلوا أموال الأرامل واليتامى ظلمًا.

ويكرّ عليهم مهدّداً بالانتقام والانتصاف للحق المهدر المضيَّع، مبيناً أن الأمر الصغير قد يجرّ إلى الأمر العظيم، حتى تصبّب الدماء وتزهق الأرواح.

ويضرب لهم المثل بالحروب الطاحنة التي دارت رحاها بين بكر وتغلب بسبب الظلم المفرّق بين أبناء العمومة، المقطّع وشائج الرحم والقربى.

ويلحّ على فكرة الظلم وما ينتج عنها من آثار مروّعة، فهو يجرّ إلى أوخم العواقب، ويؤدّي إلى مرّ النتائج، ويمثل للنتائج المرّة التي يدفع إليها الظلم بالماء الآسن المتغيرّ الملح الأجاج، يخالطه السمّ الزّعاف. ولا يخفى ما في هذا التمثيل من

---

(١) تقدم البيت وشرحه ص ٤٣.

(٢) تقدم البيت وشرحه ص ١٦٧.

(٣) تقدم البيت وشرحه ص ١٦٧.

(٤) تقدم البيت وشرحه ص ١٦٨.

(٥) تقدم البيت وشرحه ص ٤٣.

تعبير عن انفعاله الشديد وتألمه مما لاقى من ظلم أعمامه.

وينتقل إلى التعقيب على ذلك الظلم بأبيات من الحكمة، يبين فيها أن مخالطة الخبيث السّادر في دعارته وغيّه تعدي الإنسان الفاضل السويّ كما يعدي الأجرب من الإبل الصحيح. والإثم داء لا برء منه، والبرّ شفاء لا معطب فيه. والصدق يألفه اللبيب المُرَجَّى لكلّ خير، والكذب يألفه الدنيء الأخيب. وهو يلوّح بهذه الحكمة لأعمامه ليتخلقوا بقيمها الإنسانية الخلقية، ثم يلمس وجدانهم لمسه عميقة مردداً على أسماعهم حتمية الموت الذي أهلك عاداً والقرون الأولى، وأنه سيدرك كل حي.

ثم يهيب بهم أن أدّوا الحقوق إلى أهلها، تُصَنْ أعراضكم، فلا تمسّ بسوء، ويلوّح لهم بأن الكريم الحر الأبي إذا ظُلِم فإنه يغضب ويُـهَيَّجُ ولا يسكت على ضيم.

إنها قطعة قدّها طرفة من معين شعوره المنفعل المتألم الغضوب، فجاءت أبياتها ملفوفة بلفحات مشاعره المتّقدة، تصور شدة انفعاله وتأثره بما علم من ظلم أعمامه حين كبر، وتجسمت له حقيقة ظلمهم وأكل حقه وحق أمه، وقد قذف هذا الانفعالُ الصادق على لسانه اللفظَ الكريم الفحل، والتعبير الرصين المحكم، الحافل بالموسيقا الهادئة الرصينة الغضوب.

ومن عتاب طرفة الحار الممزوج بالفخر أبياته التي يروي فيها قصة تغيّر ابن عمه مالك عليه، وإعراضه عنه، كلما دنا هو منه وأقبل عليه، وكأن مالكاً يتهرب منه في وقت الحاجة إليه[1]:

فَمَـالي أراني وابنَ عَمّيَ مـالِكـاً ... مَتَى أَدْنُ مِنْـهُ يَنْـأَ عَنّي ويَبْعُـدِ
يَلومُ، ومـا أَدْري عَـلاَمَ يَلُومُني؟ ... كَما لامَني في الحَيِّ قُرْطُ بنُ أَعْبَدِ[2]
وأَيْـأَسَني من كُـلِّ خَيْـرٍ طَلَبْتُـهُ ... كَأَنّا وضَعْناهُ على رَمْسِ مُلْحَدِ[3]

(١) معلقته: ٦٨ ـ ٨١.
(٢) قرط بن أعبد: رجل من حي طرفة.
(٣) الرمس: القبر. والملحد: اللحد، وهو الشقّ في جانب القبر.

عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ قُلْتُهُ غيرَ أَنَّني نَشَدْتُ فلَمْ أُغْفِلْ حَمولَةَ مَعْبَدِ(١)
وقَـرَّبْتُ بـالقُـرْبَى وجَـدِّكَ إنَّني مَتَى يَـكُ عَهْدٌ لِلنَّكِيثَـةِ أَشْهَـدِ(٢)
وإنْ أُدْعَ لِلْجُلَّى أَكُنْ مِنْ حُماتِها وإن تأْتِكَ الأَعْداءُ بالْجَهْدِ أَجْهَدِ(٣)
وإنْ يَقْذِفوا بالقَذْعِ عِرْضَكَ أَسْقِهِمْ بِشِرْبِ حِياضِ المَوْتِ قَبْلَ التَّهَدُّدِ(٤)
بِـلا حَـدَثٍ أَحْـدَثْتُهُ وكَمُحْـدِثٍ هِجائي وقَذْفي بالشَّكاةِ ومُطْرَدي(٥)
فَلَوْ كـانَ مَوْلايَ امْـرَأً هُوَ غَيْـرُهُ لَفَرَّجَ كَرْبي أَوْ لأَنْظَرَني غَدِي(٦)
ولكنَّ مَـوْلايَ امْـرُؤٌ هُـوَ خـانِقي عَلَى الشُّكْرِ والتَّسْآلِ أَوْ أَنا مُفْتَدِ(٧)
وظُلْمُ ذَوي القُرْبى أَشَدُّ مَضاضَةً عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ(٨)
فَذَرْني وعِرْضي إنَّني لَكَ شاكِـرٌ ولَوْ حَلَّ بَيْتي نائِياً عِنْدَ ضَرْغَدِ(٩)
فَلَوْ شاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بنَ خالِدٍ ولَوْ شاءَ رَبِّي كنتُ عَمْرَو بنَ مَرْثَدِ(١٠)
فَـأَصْبَحْتُ ذا مالٍ كَثيرٍ وعادَني بَنُـونَ كِـرامٌ سـادَةٌ لِمُسَـوَّدِ(١١)

لقد آلم طرفة إعراض ابن عمه مالك عنه، وتنكره له، ولومه إياه، على غير ذنب سوى نشدانه حمولة معبد، حتى أيأسه إعراضه عنه من كل خير كان يرجوه منه، وأصبح في نظره كالميت، لا يرجى من ورائه أي نفع، مع أن موقفه هو من ابن

(١) نشدت الضالة: طلبتها وأشدت بذكرها. والحمولة: الإبل. ومعبد: أخو طرفة.
(٢) قرّبت بالقربى: أي أدللت على مالك ابن عمي بالقرابة. النكثية: بلوغ الجهد من النفس.
(٣) الجلّى: الأمر العظيم. والجهد: المشقّة والشدّة.
(٤) القَذْع والقَذَع: القبح والشتم.
(٥) كمحدث: أي هو كمحدث هجائي، بلا داعٍ. ومطردي: إطرادي.
(٦) مولاي: ابن عمي.
(٧) خانقي على الشكر والتسآل: أي يسألني أن أشكره وأفتدي منه بمالي.
(٨) مضاضة: حرقة.
(٩) ضرغد: حرّة بأرض غطفان.
(١٠) قيس بن خالد: هو قيس بن خالد بن عبد الله ذي الجدّين من بني شيبان. وعمرو بن مرثد: ابن عم طرفة.
(١١) سادة المسوَّد: أي سادة أبناء سادة.

عمه على النقيض من ذلك؛ فقد وهبه فتوته وحياته، ولم يدخر وسعاً في دفع الأذى عنه. وهذه هي خليقة طرفة التي يزهو بها ويتيه.

إنه من حماة الجلّى إذا دعي إليها، وإنها لَلأَمْر العظيم، وإن تعرّض ابن عمه لشدّة جهد في دفعها عنه، وإن قذف الأعداء عرض ابن عمه يوماً، لم يمهلهم حتى يتهدّدهم، بل أوردهم حياض الموت قبل التهديد. فشتان ما بين الموقفين، وحق لطرفة أن يغضب ويحزن لتغيرّ ابن عمه عليه.

ومما زاد موقف ابن عمه شدّة على نفسه أن ابن عمه نال منه وقذفه بالشكاة بلا سبب ولا جرم كان من طرفة نحوه. ومن ثَم كان يحسّ ألماً شديداً من تغيرّ ابن عمه عليه، عبّر عنه بمرارة وأسى ولوعة قائلاً: لو كان ابن عمي غير مالك، لأعانني على ما نزل بي من الهم، ولترفّق بي، وتأنّ في أمري، ولكن الذي كان من ابن عمي هو النقيض؛ فقد اشتد في لومي وإيلامي؛ لأنني لا أشكره، وأشكر الناس وأتعرّض لمعروفهم، وهو مع ذلك لا يغنيني عن شكرهم والتعرّض لمعروفهم، فلومه لي في مثل هذه الحالة ظلم وأي ظلم.

وهنا يبلغ انفعال الغضب والألم ذروته في نفس طرفة، فيقذف بهذا البيت السائر الشّرود معبراً به عن ظلم ذوي القربى وشدّته على نفس الأقربين:

وظُلْمُ ذَوي القُرْبَى أَشَدُّ مَضاضَةً على المَرْءِ مِنْ وقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

وفي غمرة الألم الملذّع العميق يناشد ابن عمه أن يترك له عرضه وافراً من القدح والشتم، وهو شاكر له، ولو بقي بعيداً، تتقاذفه النوى، وترمي به الأسفار.

وتتجلى لطرفة الحقيقة المرّة التي جعلته في هذا الموقف الصعب، وهي خلويده من المال، وصَفَر حياته من الولد، فيعبر عن تلك الحقيقة القاسية بقوله: لو شاء ربي وهبني الولد فكنت كقيس بن خالد، ولو شاء وهبني المال فكنت كعمرو بن مرثد، ولأقبل كرام الناس وساداتهم عليّ، يعودونني، ويلتمسون ودّي. ويأتي تعبيره عن هذه الحقيقة نفثة من مصدور متألم من كبوة الحظ، وعثرة الأيام، وشقوة الطالع، لا بنون لديه ولا مال. وقد أثّرت هذه النفثة الحارة الصادقة في نفس ابن عمه عمرو بن مرثد، فما إن سمع قول طرفة حتى استدعاه، وأغدق عليه هو وأبناؤه وحفدته المال الوفير.

وواضح أن هذا العتاب يحمل بين طياته نفساً منفعلة غضبى متألمة، ومن ثم كانت نبضات الشعور الصادق الحار العميق تواكب هذه الأبيات.

ومن لوم طرفة الحار ما صبّه فوق رؤوس أصحابه الذين خذلوه ساعة الشدّة، ولم يتحرّكوا لنجدته وإنقاذه من السجن الرهيب الذي أُلْقِيَ فيه ولم يخرج منه[1]:

أَسْلَمَني قَـوْمي ولَـمْ يَغْـضَبـوا ... لِسَـوْءةٍ حَلَّتْ بِهِمْ فـادِحَـهْ[2]
كُـلُّ خَـليـلٍ كُنْتُ خـالَـلْتُـهُ ... لا تَـرَكَ الله لَـهُ واضِـحَـهْ[3]
كُـلُّهُـمُ أَرْوَغُ مِـنْ ثَـعْـلَبٍ ... مـا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِـالْبـارِحَـهْ[4]

إنها أبيات قليلة في عددها، ولكنها غنية طافحة بشعور قائلها. إنها أشبه شيء بالأنين المكبوت، يتفجر سخطاً على أخلاّئه الذين خذلوه عند الشدّة، ولم يغضبوا لما أصابه، ولقد ارتدّت السوءة عليهم لخذلانهم إياه، وإنها لسوءة فادحة، تصمهم جميعاً بالذل والخزي والعار.

ومن نفس مترعة بالألم وخيبة الأمل يعلن أن كل خليل خالله خذله عند الشدّة، ويدعو على الجميع بألاّ يترك الله لهم سنّاً واضحة، ليكونوا مُثْلَة بين الناس.

ويعمهم جميعاً بالحكم، فكلهم أروغ من ثعلب، ويأتي بالمثل المشهور: ما أشبه الليلة بالبارحة في الظلمة والسواد والحُلْكَة، فلقد تشابهوا جميعاً في صفة الروغان، وسواد القلب، وسوء الطّويّة.

ويحمل التعميم الذي أطلقه في البيت الأخير زفرة نفس مكلومة مهيضة متألمة مما أصابها من تخاذل الصحب والخلاّن عنه ساعة العسرة.

ولطرفة أبيات أخرى في لوم قومه الذين تقاعسوا أيضاً عن نصرته بعد أن

---

(١) ديوانه: ١١٤.
(٢) السوءة: كل عمل أو أمر شائن. والفادحة: الثقيلة.
(٣) الواضحة: الأسنان الضواحك التي تبدو عند الضحك.
(٤) ما أشبه الليلة بالبارحة: ضربه مثلاً لشبه بعضهم بعضاً في روغانهم وخذلانهم إياه.

سُجن بأمر عمرو بن هند، رواها ابن السكيت، وهي:[1]

أَبْلِغْ سَراةَ بَني بَكْرٍ مُغَلْغَلَةً ... فَجدَّعَ اللهُ مِنْ آذانِها اليُمَنا[2]
عَنَيْتُ ثَعْلَبَةَ العِجْلِيَّ مَأْلُكَةً ... عندَ الحَوادِثِ إذْ أَلَّى وإذْ غَبَنَا[3]
والمَرْءَ قَيْساً يُرَى نَوّاحَةً بُعِثَتْ ... تَبْكي لِمَيْتٍ، ولا تَبْكي بِهِ شَجَنَا[4]
وهانِئاً هانِئاً في الحَيِّ مُومِسَةً ... ناطَتْ سِخاباً وناطَتْ فَوْقَهُ ثُكُنا[5]
ما دافَعُوا فيُرَى فيهِمْ مكانُهُم ... ولا سَمِعْنا لَها مِنْ ذِكْرِها حَسَنا

إنها رسالة تنم عن ضيق طرفة وتألمه من تقاعس قومه عن نصرته، وقعودهم عن فكاكه من الأسر، وتقصيرهم في إنقاذ حياته، ويتجلى ألمه اللاذع في دعائه على قومه: فجدّع الله من آذانها اليُمنا، وفي إعلانه تقصير بني قومه في حقه، وتفريطهم به بالتخلّي عن إنقاذه. ويعدّد اسمَيْ قيس وهانىء، ويبدو أنهما من بني قومه السّادرين المنصرفين عن التفكير في نصرته وإنقاذه.

فالأول يبكي، بل يتظاهر بالبكاء، وليته بكاء صادر من القلب، إذاً لخفف من وطأة الكارثة ووقع المصيبة التي حلت به، وإنما هو يتباكى كالنائحة المستأجرة للبكاء على الميت. وفي هذا من الإيلام لنفس طرفة ما فيه.

والثاني سادر لاه، لاهم له إلا زينته واستمتاعه، فهوكالمومس الفاجرة التي أخذت زينتها، وسارت بين الناس، يضوع منها الطيب، وتتألق فوق جيدها ألوان الحلي.

---

(١) ديوانه برواية ابن السكيت: ٤٦.
(٢) سراة بني بكر: أشرافهم. ومغلغلة: رسالة ذائعة. وجدّع: قطّع.
(٣) ثعلبة العجلي: أحد أجداد طرفة، وأراد بني ثعلبة. ومألكة: رسالة. وألّى: قصّر وأبطأ. وغبن: ظلم.
(٤) شبه قيساً بنائحة مستأجرة تبكي بكاء ليس على حقيقته.
(٥) المومسة: الفاجرة. وناطت: علقت. والسخاب: قلادة تتخذ من مسك وقرنفل ومحلب. والثُكُن: جمعُ ثُكْنة، وهي القلادة أيضاً.

ويختم مقطوعته هذه بتقرير الحقيقة المرّة التي وُصِمَ بها قومه، وهي أنهم لم يتحركوا للدفاع عنه، فيشهد الناس مكانهم في موقف الدفاع المشرِّف، ولا سمع لهم أحد ذكراً حسناً تَدور به المجالس.

والقطعة موّارة بانفعال الغضب الحار الصادق، نابضة بصَدق المعاناة، تصوّر ما اعتلج في نفس طرفة من مشاعر الألم والسخط والازدراء لهؤلاء الذين أخلدوا إلى الأرض، وآثروا السلامة، وقعدوا عن نصرة شاعرهم الشاب.